

# الباب الثالث والعشرون

## الحروب الصليبية

١٠٩٥ - ١٣٩١

### الفصل الأول

#### أسبابها

كانت الحروب الصليبية هي الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ؛ ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير في تاريخ أوروبا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان العظيمان - المسيحية والإسلام - ، آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، إلى الفصل الأخير فيما يشجر بين بني الإنسان من نزاع ، ونعني به محكمة الحرب العليا ؛ وفيها بلغ كل تطور في العصور الوسطى ، وكل توسع في الشؤون التجارية والديانة المسيحية ، وكل نحس في العقيدة الدينية ، وكل ما في الإقطاع من قوة ، وفي القروسية من فتنة وبهجة ، وبلغ هذا كله غايته في حرب دامت مائتي عام في سبيل روح البشرية والأرباح التجارية .

وأول سبب مباشر للحروب الصليبية(\*) هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى ؛ وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحاً رحباً ؛ استمعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائريتها إذا استثنينا بعض فترات

---

(\*) الاسم الإنجليزي Crusade مشتق من اللفظ الأسباني Cruzada أي عليه

علامة الصليب :

قصيرة قليلة : نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمر كنيسة الصريح المقدس (١٠١٠) ؛ ولكن المسلمين أنفسهم قلموا المال الكثير لإعادة بنائها<sup>(١)</sup> . وقد وصفها الرحالة المسلم ناصرى خسرو بأنها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص ، بذل في بنائها أعظم ما يستطيع من الخلق والمهارة ، وزين كل مكان في داخلها بالنسيج الحريري البيزنطى المطرز بخيوط الذهب ، ورسم فيها المسيح عليه السلام راكباً على ظهر حمار<sup>(٢)</sup> ؛ وكان في أورشليم كنائس أخرى كثيرة ، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ؛ وكان الحج إلى فلسطين قد أصبح من زمن بعيد إحدى شعائر العبادة أو التوبة من الذنوب ، فكان الإنسان أينما سار في أوروبا يلتقى بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أكتافهم شارة في شكل الصليب من خوص النخل<sup>(\*)</sup> جاءوا به من فلسطين ؛ ويوصف هؤلاء في كتاب يبرز بلاومان Piers Plowman بأنه « كان من حقهم أن يكذبوا ويخادعوا ما بقى من حياتهم<sup>(٣)</sup> » . لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين في عام ١٠٧٠ ، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتعمير ، وتقول قصة قديمة لا نجد ما يؤيدها ، إن أحد هؤلاء الحجاج وهو بطرس الناسك حمل إلى إربان الثانى Urban II من سمعان بطريق أورشليم رسالة تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون فيها من اضطهاد وتستغيث به لينقذهم (١٠٨٨) .

وكان السبب المباشر الثانى من أسباب الحرب الصليبية ما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة . لقد ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون طوال تقف في ملتقى الطرق المارة بين أوروبا وآسية ، تصد جيوش آسية وجحافل

(\*) وكان هؤلاء يسمون Palmers من كلمة palm أى النخلة ومن معانى كلمة Palmer

عشار أو حادق في لقب . (المترجم)

السهوب . أما في الوقت الذي نتحدث عنه فإن اضطراب شئونها الداخلية ، وشيخها الخارجية على اللدين ، وانفصالها عن الغرب على أثر الانشقاق الذي حدث في عام ١٠٥٤ ، كل هذا قد أوهنها وجعلها أضعف من أن تؤدي رسالتها التاريخية . وبينما كان البلغار ، والبشناق Patznaks ، والكومان Comans ، والروس يدقون أبوابها في أوروبا ، كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية ، وكاد الجيش البيزنطي أن يقضى عليه عند ملازكرت في عام ١٠٧١ ، واستولى السلاجقة على حمص وأنطاكية (١٠٨٥) ، وطرسوس ، ونيقية ذات الماضي التاريخي الديني ، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البسفور إلى القسطنطينية نفسها ، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول (١٠٨١ - ١١١٨) أن يحتفظ بجزء من آسية الصغرى بعقد صلح مذل ، ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التي توالى بعدئذ على أملاكه . ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ في أيدي الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرقي أوروبا كله ، ولتَمَّ بقي لمعركة تور (٧٣٢) أثر ما . وبعث ألكسيوس برسله إلى إربان الثاني وإلى مجلس بياسنزا Piacenza يستحث أوروبا اللاتينية لتساعده على صد هجمات الترك ؛ وكان من أقواله : إن من الحكمة أن يجارب الأتراك في أرض آسية بدل أن نتظرهم حتى يقتحموا بمحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوروبا الغربية .

وثالث الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هورغبة المدن الإيطالية - بيزا ، وجنوى ، والبندقية ، وأملى Amalfi - في توسيع ميدان سلطانها التجاري الآخذ في الازدياد . ذلك أنه لما استولى النورمان على صقلية من المسلمين (١٠٦٠ - ١٠٩١) ، وانتزعت الجيوش المسيحية منهم جزءاً كبيراً من أسبانيا (١٠٨٥ وما بعدها) ، أصبح البحر المتوسط الغربي حراً للتجارة المسيحية ؛ وأثرت المدن الإيطالية وقويت لأنها هي الثغور التي تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب ، وأخذت هذه المدن تعمل للقضاء على تفوق المسلمين في الجزء

الشرق من البحر المتوسط وتفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غربي أوروبا .  
ولسنا نعلم إلى أي حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا .

وصلر القرار النهائي من إربان نفسه ، وإن كان غيره من البابوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة . فقد دعا جربرت Gerbert ، حينما أصبح البابا سلستر الثاني Sylvester II ، العالم المسيحي لإنقاذ بيت المقدس ، ونزلت حملة مخفقة في بلاد الشام ( حوالي ١٠٠١ ) ؛ ولم يمنع النزاع المير القائم بين جريجورى السابع وهنرى الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوته : « إن تعريض حياتي للخطر في سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندي من حكم العالم كله » (١) . وكان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس إربان مجلس بياسنزا في مارس من عام ١٠٩٥ ؛ وأيد البابا في هذا المجلس استغاثة ألكسيوس ، ولكنه أشار بتأجيل العمل حتى تعقد جمعية أكثر من هذا المجلس تمثيلاً للعالم المسيحي ، وتبحث في شن الحرب على المسلمين . ولعل الذى دعاه إلى طلب هذا التأجيل ما كان يعلمه من أن النصر في مغامرة في هذا الميدان البعيد غير مؤكد ؛ وما من شك في أنه كان يدرك أن الهزيمة ستحط من كرامة العالم المسيحي والكنيسة المسيحية إلى أبعد حد ؛ وأكبر الظن أنه كان يتوق إلى توجيه ما في طبائع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة ، تصد جيوش المسلمين عن أوروبا وبيزنطية . ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوي ، ويرى بعين الخيال عالماً مسيحياً عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الدينى ، ورومة تعود حاضرة للعالم ؛ وكان هذا تفكيراً أمّلته رغبة في الحكم لا تعلقها رغبة .

وظل البابا بعدئذ بين شهرى مارس واکتوبر من عام ١٠٩٥ يطوف بشمال إيطاليا وجنوب فرنسا ، يستطلع طلع الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه . واجتمع المجلس التاريخي بمدينة كلير مونت Clermont في مقاطعة أوفرنى ، وهرع

إليه آلاف الناس من مائة صقع وصقع لم يقف في سبيلهم برد نوفمبر القارس .  
ونصب القادمون خيامهم في الأراضي المكشوفة ، وعقدوا اجتماعاً كبيراً لا يتسع  
له بهو ، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة في وسطهم مواطنهم  
لوديان الفرنسي وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً في  
تاريخ العصور الوسطى :

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! . . . لقد جاءت من تخوم  
فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسنا لعينا أبعد  
ما يكون عن الله ، قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخرّبها  
بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ؛ ولقد ساقوا بعض الأسرى  
إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب . وهم يهدمون  
المذابح في الكنائس ، بعد أن يدنسوها بوجسهم ، ولقد قطعوا أوصال  
مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع  
اجتيازها في شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ،  
إذا لم تقع عليكم أنتم - أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد  
في القتال ، وباليسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رعوس من يقفون في  
جوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم - أمجاد شارلمان  
وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم - فليثر همتكم ضريح المسيح  
المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذي تمتلكه الآن أم نجسة ، وغيره من  
الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست ... لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم  
أو من شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن ، والتي  
تجيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها  
الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ، ومن أجل هذا  
يتذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً ، وتحاربون ، ويهلك الكثيرون  
منكم في الحروب الداخلية .

ظهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من  
نواع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من  
ذلك الجنس الخبيث ، وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها في  
قارها ، هي فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم  
تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين  
تمخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في  
ملكوت السموات<sup>(٥)</sup> .

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة : « تلك إرادة الله  
Dieu li volt » وردّد إرباب هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم في  
الحرب ، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على  
جباههم أو صدورهم ويقول وليم مالزبرى William Malmsbury :  
« وتقدم بعض النبلاء من فورهم ، وخرجوا راكعين بين يدي البابا ،  
ووهبوا أنفسهم وأمواهم لله ،<sup>(٦)</sup> وحذا جنودهم آلاف من عامة الشعب ،  
وخرج الرهبان والنسك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفي  
لهذا اللفظ لا بمعناه المجازي ، وانتقل البابا النشيط إلى مدن أخرى - إلى  
تور ، وبوردو ، وطولوز (طلوشة) ، ومنبليه ، ونيمز Nimes :  
وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية . ولما بلغ رومة بعد أن  
غاب عنها سنتين ، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحي تقوى ،  
وأخذ على عاتقه أن يحمل جميع الصليبيين من جميع القبود التي تعوقهم عن  
الانضمام إلى المقاتلين . ولم يلق في عمله هذا مقاومة جدية ، فحرر  
رقيق الأرض ، وحرر التابع الإقطاعي طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء  
لسيده ، ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام  
المحاكم الإقطاعية ، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم . وأمر

بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين - وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا ، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعي ، وهكذا توحدت أوروبا كما لم تتوحد في تاريخها كله ، ووجد إربان نفسه السيد المرتضى - من الوجهة النظرية على الأقل - للملك أوروبا على بكرة أبيهم . وسرت روح الحاسة في أوروبا كما لم تسر فيها من قبل في أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة .

## الفصل الثاني

### الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٥ - ١٠٩٩

وانضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة إلى هذا بمغريات  
جمة : منها أن كل من يخر صريعاً في الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه ،  
وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضي التي كانوا مرتبطين بها ، وأعفى  
سكان المدن من الضرائب ، وأجلت ديون المدنيين على أن يؤدوا فائدة نظير  
هذا التأجيل ، وتوسع البابا في سلطانه توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين ،  
وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم في  
فلسطين ، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة ؛ وأقبل  
كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضي التي ولد فيها المسيح ومات ،  
منهم رجال سئموا الفقر الذي كانوا يعانونه ، والذي ظنوا أن لانجاة لهم منه ،  
ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع في مغامرات جريئة في بلاد الشرق ،  
ومنهم الأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعات في تلك البلاد ،  
ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم ، والفرسان الذين غادر  
أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم ، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين  
يخشون أن يرميهم الناس بالجن وخور الغزيمة . ونشطت الدعاوة المألوفة  
في الحروب فأخذت تؤكد الاضطهاد الذي ياقمه المسيحيون في فلسطين ،  
والمعاملات الوحشية التي يلقونها على أيدي المسلمين ، والأكاذيب عمما في  
العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال ؛ فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون  
تمثالا للنبي محمد (٧) ؛ وأخذ الثرثارون « الأتقياء » يقولون : إن النبي قد

أصابته نوبة صرع التهمته في أثناءها الخنازير البرية (٨) . ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق ، وعن الغايات السمر ينتظرن أن يأخذهن الرجال البواسل (٩) .

وهذه البواعث المختلفة لا يمكن أن يجتمع من أجلها جموع متجانسة يستطيع إخضاعها لنظام عسكري . وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا في كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوف المجاهدين ليقوم النساء بخدمة أزواجهن ، والأبناء بخدمة آبائهن ، ولعلمهم كانوا على حق في هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين . وكان إربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ ، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد ، فسار جحفل منهم عدته نحو اثني عشر ألفا (لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان) وبدأ رحلته من فرنسا في شهر مارس بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit ، وولتر المفلس (Walter the penniless) (Gautar Sans-Avoir) ، وقام جحفل آخر - ربما كانت عدته ٥٠٠ من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك Gattschalck ، وزحف ثالث من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو الليننجيني Count Emico of Leiningen . وكانت هذه الجموع غير النظامية هي التي قامت بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا ويوهيميا ، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد ، وانحطت حتى استحالت إلى وقت ما وحوشا كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح . وكان المجنلون قد جاءوا معهم ببعض المال ، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذي لا يغني عن الطعام ، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم ؛ وقدر كثير من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح ، وكانوا وهم يسرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم في لطفة - أليست هذه أورشليم ؟ ولما فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضطروا إلى نهب ما في طريقهم من الحقول والبيوت ،

وسرعان ما أضفوا الفسق إلى السلب والنهب<sup>(١١)</sup> . وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها في وجوههم ، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل ، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفذت أموالهم ، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع والطاعون ، والجذام ، والحمى ، والمعارك التي خاضوا غمارها في الطريق ، رحب بهم الكسيوس ؛ ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام ، فانطلقوا في أرباض المدينة ، ونهبوا الكنائس ، والمنازل ، والقصور . وأراد الكسيوس أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة التي أهلكت الحرث والنسل وكانت فيها كالجراد المنتشر . فأمدّها بالسفن التي عبرت بها البسفور ، وأرسل إليها المؤن ، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها فرق أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً . ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه الأوامر ، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم وفتاد صبرهم ، فزحفوا على نيقية . وخرجت عليهم قوة منظمة من الترك ، كلها من مهرة الرماة ، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكذب على أحد منها . وكان ولتر المفلس من بين القتلى ؛ وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التي لا تخضع لقيادة ، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية ، وأقام فيها سالماً حتى عام ١١١٥ .

وبينا كانت هذه الحوادث تجرى في مجراها كان الزعماء والإقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله في إقليمه . ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك ، فقد كان فيليب الأول ملك فرنسا ، ووليم الثاني ملك إنجلترا ، وهنرى الرابع ملك ألمانيا ، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من حظيرة الدين حين كان إربان الثاني يدعو إلى الحرب الصليبية ، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين أو الفرنجة . وبهذا كانت الحرب الصليبية الأولى في الأغلب الأعم مغامرة فرنسية ، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم إذا ذكر غربي أوروبا سماه بلاد الفرنجة ( الأفرنج ) ، وكان

الدوق جديفرى Godfrey سيدبويون Bouillon ( وهى مقاطعة صغيرة فى بلجيكا ) يجمع بين صفات الجندى والراهب - كان شجاعاً محنكا فى الحرب ، ورعاً إلى حد التعصب فى الدين ؛ وكان الكونت بوهمند من سادة ترنتو Tarantô ابن روبرت جسكارڊ Robert Guiscard قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته ، وكان يحلم باقتطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة فى الشرق الأدنى . وكان معه ابن أخيه تانكرڊ الهوثفيلى Tancred of Hauteville الذى شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية أورشليم المنجاة Jeusalem Delivered لتاسو Tasso . وكان بهى الطلعة ، شجاعاً لا يهاب الردى ، شهماً ، كريماً ، يحب المجد والمال ، يعجب به الناس كافة ويروونه المثل الأعلى للفارس المسيحى . وكان ريموند Reymond كونت طولوز ( طولوشة ) قد حارب المسلمين من قبل فى أسبانيا فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع ، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبهه ، ودنس بحله تقواه .

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية من طرق مختلفة ؛ وعرض بوسند على جديفرى أن يستوليا على المدينة ، فرفض جديفرى هذا العرض لأنه لم يأت ، على حد قوله ، إلا لقتال الكفرة (١٢) ، ولكن هذه الفكرة لم تمت . وكان فرسان الغرب الأشداء أنصاف الهمج يحتفرون سادة الشرق المثقفين المخادعين ، ويرون أنهم مارقون من الدين ، مخشون ، مترفون . وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة فى كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويرون أن هنا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل . ولعل ألكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التى كانت تملأ صدور منقذيه ، وكان ما لاقاه فى قتال جحافل الفلاحين ( وقد لامة الغرب على هزيمته إياهم ) مما دعاه إلى اصطناع الحذر ، وإن شئت فقل إلى النفاق . نعم إنه استنجد بالغرب على الأتراك ، ولكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوربا المتحدة على أبواب عاصمته ، ولم

يكن واثقاً قط من أن أولئك المقاتلين يطمعون في أورشليم بقدر ما يطمعون في القسطنطينية ، أو من أنهم سيعيدون إلى ملكه أى إقليم ينتزعونه من الأتراك ، وكان من قبل من أملاك الدولة البرنطية . ولهذا عرض على الصليبيين المؤمن ، والأموال ، ووسائل النقل ، والمعونة الحربية ، وعرض على زعمائهم رشا سخية<sup>(١٣)</sup> ، وطلب إليهم في نظير هذا أن يقسم النبلاء يمين الولاء له بوصفه سيدهم الإقطاعي ، وأن تكون كل الأراضي التي يستولون عليها إقطاعيات لهم منه . وأثرت الفضة في نفوس النبلاء ورققت قلوبهم فأقسموا اليمين المطلوبة .

وعبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً المضيقين في عام ١٠٧٩ ، وكانت لا تزال موزعة القيادة . وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساماً على أنفسهم من المسيحيين ، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين في أسبانيا ، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم في شمالي إفريقيا ؛ وكان الخلفاء الفاطميون في الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية ، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون جزءها الشمالي والقسم الأكبر من آسيا الصغرى . وخرجت أرمينية على فاتحها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة . وزحفت جبرش أوربا يؤيدها هذا العون كله وحاصرت نيقية . واستسلمت الحامية التركية في المدينة بعد أن وعدّها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها ( ١٩ يولية سنة ١٠٩٧ ) ، ورفع إمبراطور الروم العلم الإمبراطوري على حصنها ، وحمل المدينة من النهب ، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية ، ولكن الجنود المسيحيين اتهموا ألكسيوس بأنه ضالع مع الأتراك . واستراح الصليبيون في المدينة أسبوعاً زحفوا بعده على أنطاكية ، والتفوا عند دوريليوم بجيش تركي تحت قيادة قلج أرسلان ، وانتصروا عليه انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء ( أول يولية سنة ١٠٩٧ ) ، واخترقوا آسيا الصغرى دون أن يلقوا فيها عدواً غير قلة الماء والطعام ، والحر الشديد الذي لم تكن دماء الغربيين قادرة على احتماله . ومات الرجال والنساء ، والحيل

والكلاب ، من العطش في أثناء هذا الزحف الشاق الذى اجتازوا فيه خمسمائة ميل ؛ فلما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسي ليفتحوا لأنفسهم فتوحا خاصة بهم - فسار ريمند ، وبوهمند ، وجدفرى إلى أرمينية ؛ وسار تنكرد وبولدوين (أخو جدفرى) إلى الزها حيث أسس بلدوين بالختل والغدر<sup>(١٤)</sup> أولى الإمارات اللاتينية في الشرق (١٠٩٨) . وأخذت قوات الصليبيين الكبرى تشكو من هذا التأخير وتتوجس منه الشر المستطير ؛ فعاد النبلاء وواصلت القوة بأجمعها الزحف على أنطاكية .

ويصف المؤرخ الإخبارى صاحب چستا فرنكورم *Gesta Francorum* أنطاكية بأنها « مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن »<sup>(١٥)</sup> . وقاومت المدينة الحصار ثمانية أشهر ، مات في خلالها كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع ، وقد وجد بعضهم غذاء جديداً بامتصاص « أعواد حلوة سموها زكرا *Zucra* » (وهي كلمة مشتقة من لفظ السكر العربى) ، ففيها ذاق « الفرنجة » طعم السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات المزروعة<sup>(١٦)</sup> . وقدمت العاهرات للغزاة متعا أشد خطراً من السكر ، من ذلك أن رئيساً للشمامسة قتله الأتراك وهو مضطجع مع عاهر سورية<sup>(١٧)</sup> . وجاءت الأنباء في شهر مايو من عام ١٠٩٨ أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية ، لكن هذه المدينة سقطت في أيدي الصليبيين (٣ يونية ١٠٩٨) قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام . وخشى كثيرون من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة ، فركبوا السفن في نهر العاصى ، وفروا هاربين . وزحف ألكسيوس بقوة من جنود الروم ، ولكن جماعة من الفارين غرروا به ، فأدخلوا في روعه أن المسيحيين هزموا ، فعاد أدرجه ليدافع عن آسية الصغرى ، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة . وأراد قسيس من مرسلية يدعى بطرس بارثلميو *Peter Bartholomew* أن

يبعث الشجاعة من جديد في قلوب الصليبيين ، فادعى أنه عثر على الخربة التي نفذت في جنب المسيح ، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الخربة أمامهم كأنها علم مقدس ، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال في ثياب بيض حين ناداهم الرسول البابوي أدهمار وسماهم الشهداء القديسين موريس ، وثيودور ، وجورج . وبعث ذلك في قلوب الصليبيين روحاً جديدة ، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً . ثم اتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية ، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه . وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة في حزم من الحطب ، وخرج سالماً في الظاهر ، ولكنه توفي في اليوم الثاني من أثر الحروق أو من الإجهاد الذي لم يحتمله قلبه ، وأزيلت الخربة من بين أعلام الجيش الصليبي (١٨) .

وأصبح بوهمند من ذلك الحين أمير أنطاكية اعترافاً بفضله ، وكان يمتلك هذا الإقليم في ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألكسيوس ، لكنه في الواقع كان يحكمه بوصفه حاكماً مستقلاً ؛ وقال زعماء الصليبيين إن عجز ألكسيوس عن أن يخفف لمعونتهم قد أحلهم من يمين الولاة التي أقسموها له . وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواهم وجددوا نشاطهم ، ثم زحفوا بجيوشهم على أورشليم . وبعد حروب دامت ثلاث سنين ، نقص فيها عددهم إلى ١٢ر٠٠٠ من المحاربين وقفوا في اليوم السابع من شهر يونية عام ١٠٩٩ وهم متهيجون متعبون أمام أسوار المدينة . وكان من سخریات التاريخ أن الأتراك الذين جاءوا ليقاتلهم قد أخرجوا من المدينة قبل ذلك الوقت بعام ، وكان مخرجهم هم الفاطميين . وعرض الخليفة الفاطمي على الصليبيين أن يعقد معهم الصلح مشروطاً على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم والذين يأتونها للعبادة . ولكن بوهمند وجدفري طلبا التسليم بغير قيد أو شرط ، وقاومت حامية الفاطميين

المكونة من ألف رجل الحصار مدة أربعين يوماً ، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يولييه قاد جندفرى وتانكرد رجالهما وتسلقوا أسوار المدينة ، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا فى سبيله الأمرين . وفى هذا يقول القس ريمند الإچيلى شاهد العيان :

وشاهدنا أشياء ، عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهم ، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا فى النار . وكنت ترى فى الشوارع أكوام الروعوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيول (١٩) .

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ؛ يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحرايب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أئداء أمهاتهم (٢٠) ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء ، واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجاً بالنصر ، وبتحرير المدينة ، ويمجدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز !

## الفصل الثالث

مملكة أورشليم اللاتينية ١٠٩٩ - ١١٤٣

اختير جدفري البويوني الذي اعترف له آخر الأمر بالصلاحيات ، والتقى المنقطعي النظر حاكما على دمشق على أن يلقب بهذا اللقب المتواضع وهو « حامي الضريح المقدس » ولم يدع الحاكم الجديد أنه خاضع لألكسيوس لأن الحكم البيزنطي لهذه المدينة كان قد انقضى منذ ٣٦٥ عاماً ، ولهذا أصبحت مملكة أورشليم اللاتينية من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة . وحرّم فيها المذهب الأورثوذكسي الشرقي ، وفرّ الطريق اليوناني إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الإيطالي والحكم البابوي .

وبعد فإن ثمن السيادة هو القدرة على الدفاع عنها . وهذا هو الثمن الذي كان على المحررين العظام أن يؤدوه ؛ فقد وصل إلى عسقلان بعد أسبوعين من هذا التحرير جيش مصري يهدف إلى استعادة المدينة المقدسة في أديان كثيرة وهزم جدفري هذا الجيش القادم ، ولكنه مات بعد سنة واحدة من تلك المعركة ( ١١٠٠ ) وخلفه أخوه بولدوين وهو أقل منه كفاية ( ١١٠٠ - ١١١٨ ) ، واتخذ لنفسه لقباً أسمى من لقبه وهو لقب ملك . وشملت المملكة الجديدة في عهد الملك فلك Fulk كونت أنجو ( ١١٣١ - ١١٤٣ ) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا ، ولكن المسلمين ظلوا مالكيين حلب ، ودمشق ، وحمص . وقسمت المملكة أربع إمارات إقطاعية ، تركز على التوالي حول أورشليم ، وأنطاكية والرها ، وطرابلس ؛ ثم جزئت كل إمارة إلى إقطاعات تكاد كل منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وكان سادتها المتحاسدون يشنون الحروب بعضهم على

بعض ، ويسكون العملة ، ويحاكون الملوك المستقلين في هذه وغيرها من الشئون . وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك ، وتقيده ساطة كنسية دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه . وكان مما أضعف سلطان الملك غير هذا أنه أسلم عدة ثغور : يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان - إلى البندقية ، وبيزا ، وجنوى ، نظير ما تقدمه للمملكة الجديدة من معونة حربية وما تحمله لها بطريق البحر من مؤن . أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعهما المحاكم العليا في أورشليم - وكان هذا إحدى النتائج المنطقية للحكم الإقطاعي من الوجهة القانونية . وادعى الأشراف ملكية الأرض جميعها ، وأنزلوا ملاكها السابقين - سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين - منزلة أرقاء الأرض ، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ في أوربا ، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدون من العصور الذهبية التي مرت بالبلاد (٢١) .

وكان في المملكة الناشئة كثير من أسباب الضعف ، ولكنها كانت تتلقى معونة فذة من نظام من الرهبان الحريين . ذلك أن تجار أملفي Amalfi كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام ١٠٤٨ على إذن ببناء مستشفى في بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج . ثم نظم ريمند دو بي Raymond du Puy موظفي هذا المعهد تنظيماً جديداً فجعلهم هيئة دينية تركز حياتها للعفة ، والفقير ، والطاعة ، وحماية المسيحيين في فلسطين بالدفاع عنهم دفاعاً عسكرياً ؛ ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى القديس يوحنا من أنبل الهيئات الخيرية في العالم المسيحي . وحدث حوالي ذلك الوقت نفسه (١١١٩) أن نذر هيوده بايان Hugh de Payans وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة ، وخلصوا المسيحيين العسكرية ، وأن حصلوا من بلدوين الثاني على مسكن لهم بالقرب من الموضع الذي كان فيه هيكل سليمان ، وسرعان ما أطلق عليهم اسم فرسان المعبد . ووضع

لهم القديس برنار نظاما صارما ، لم يطيعوه زمنا طويلا ؛ وكان مما أثنى عليهم به أنهم « أكثر الناس علما بفن الحرب » ، وأمرهم « ألا يغتسلوا إلا نادراً » وأن يقصوا شعر رؤوسهم<sup>(٢٢)</sup> . وكتب برنار إلى فرسان المعبد يقول « إن على المسيحي الذي يقتل غير المؤمن في الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقا من هذا الثواب إذا قُتِل هو نفسه ، وإن المسيحي ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يتهج بهذا الموت »<sup>(٢٣)</sup> ؛ ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر في الحروب . وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزراً أسود اللون ، على كفه الأيسر صليب ، أما الواحد من فرسان المعبد فكان يلبس مئزراً أبيض على « حرملته » صليب أحمر . وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى كرهاً مبعثه الدين . وانتقل فرسان المستشفى وفرسان المعبد ترميض الحجاج إلى المهجوم على حصون المسلمين ؛ ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلاثائة ، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالي ١١٨٠<sup>(٢٤)</sup> ، فقد كان لهم جميعاً شأن ظاهر في معارك الحروب الصليبية ؛ وذاعت شهرتهم الحربية . وقامت الطائفتان بجملة واسعة لجمع المال ، فتوالت عليهما الإعانات من الكنيسة والدولة ، ومن الأغنياء والفقراء على السواء ؛ فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاها تمتلك في أوروبا ضياعاً واسعة تشمل أديرة ، وقرى ، وبلدانا . وأدهشت كلتاها المسيحيين والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة في بلاد الشام ، حيث كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين ، وسط متاعب الحروب وكدحها ، مع أنهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقير<sup>(٢٥)</sup> . وفي عام ١١٩٠ أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التوتون بمعونة عدد قابل من الألمان في بلادهم الأصلية ، وشادوا لهم مستشفى قرب عكا .

وعاد معظم الصليبيين إلى أوروبا بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، فنقص بذلك عدد الرجاى الذين تعتمد عليهم الحكومة المزعجة الأركان نقصاً يعرضها

للخطر الشديد . ووفد على البلاد كثيرون من الحجاج ولكن قلما بقي فيها عدد منهم للقتال . وكان الروم في الشمال يترقبون فرصة تتاح لهم لاستعادة أنطاكية والرها وغيرهما من المدن التي كانوا يدعون أنها مدن بيزنطية ؛ وأخذ المسلمون في الشرق ينشطون ويضمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات المسيحية . وكان اللاجئون المسلمون الفارون من فلسطين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التي أعقبت سقوط المدينة في أيدي المسيحيين . واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة من أيدي الكفرة النجسة (٣٦) . وكان الخليفة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء ، ولكن عماد الدين زنكي أمير الموصل الذي ولد عبداً رقيقاً لبي الدعوة ، وزحف جيشه الحسن القيادة في عام ١١٤٤ وانتزع من المسيحيين المعقل الخارجي الشرق ، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمها إلى حظيرة الإسلام . واغتيل زنكي وخلفه ابنه نور الدين ، وكان يماثله في شجاعته ، ويفوقه في قدرته . وكانت أخبار هذه الحوادث هي التي أثارت أوروبا ودفعتها إلى الحرب الصليبية الثانية .

## الفصل الرابع

### الحرب الصليبية الثانية : ١١٤٦ - ١١٤٨

واستغاث القديس برنار بالبابا يوجنيوس الثالث لينادى مرة أخرى بحمل السلاح . وكان يوجنيوس وقتئذ في صراع مع الخارجين على الدين في رومة نفسها ، فطلب إلى برنار أن يقوم هو نفسه بالدعوى . وكانت هذه فكرة سديدة لأن القديس كان أعظم شأنًا من الرجل للذى نصبه هو بابا . فلما أن خرج من صومعته في كليرفو Clairvaux ليدعو الفرنسيين إلى الحرب خفت أصوات الشك التى كانت مستكنة في صدور المؤمنين ، وزالت المخاوف التى نشرتها القصص التى كانت تروى عن الحروب الصليبية الأولى . واتخذ برنار سبيله مباشرة إلى الملك لويس السابع وأقنعه بأن يحمل الصليب ، ثم وقف والملك إلى جانبه وأخذ يخطب الجمع الحاشد في فيزلاى Vézelay ( ١١٤٦ ) ؛ ولم يكذب حتى تطوع الجمع كله لحمل السلاح ، وتبين أن ما كان معداً من الصليبان لا يكفيهم ؛ فزق برنار مزره ليصنع منه ما يحتاجه من الشارات ، وكتب إلى البابا يقول إن « المدائن والحصون قد دخلت من سكانها ، ولم يبق إلا رجل واحد لكل سبع نساء ، وترى في كل مكان أرامل لأزواج لا يزالون أحياء » . ولما أن ضم إليه فرنسا على هذا النحو انتقل إلى ألمانيا ، واستطاع بحماسة وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور كتراد الثانى بأن الحرب الصليبية هى القضية الوحيدة التى استطاع بها توحيد حزبي الجلف Guelf والمهنتوفن Hohenstaufen اللذين كان نزاعهما يمزق الدولة تمزيقاً . وانضوى كثيرون من النبلاء تحت لواء كتراد ، من بينهم الشاب فردريك السوابى Frederick of Swabia الذى

أصبح فيما بعد بربروسا Barbarossa والذي مات في الحرب الصليبية الثالثة .  
وبدأ كتراد والألمان سيرهما في يوم عيد الفصح من عام ١١٤٧ ،  
وتبعهما الفرنسيون في يوم عيد العنصرة ، وكانوا يسرون في حذر على  
مسافة منهم ، لأنهم لم يكونوا واثقين أيهما أشد عداء لهم : الألمان  
أو الأتراك . وكان الألمان أيضاً يشعرون بمثل هذه الحيرة بين الأتراك  
واليونان ؛ وبلغ من كثرة المدن البيزنطية التي نهبت في طريق الزاحفين أن  
أغلقت كثير منها أبوابها في وجوههم ، ولم تقدم لهم إلا قليلا من المؤن أنزلتها  
في سلات من فوق الأسوار . وعرض عليهم مانول كمينوس Manuel  
Comnenus إمبراطور الرومان في ذلك الوقت في رقة ولطف أن تعبر  
الجيوش الثيلة مضيق الهلسنت عند ستسوس Sestos ، بدل أن تحترق  
القسطنطينية ، ولكن كتراد ولويس رفضا هذا العرض ، وقامت طائفة في  
مجلس لويس تدعوه إلى الاستيلاء على القسطنطينية وضمها إلى فرنسا ، ولكنه لم  
يستجب لهذه الدعوة . على أنه لا يبعد أن تكون أبنائها قد ترامت إلى  
اليونان ؛ هذا إلى أن هؤلاء قد توجسوا خيفة من قامه فرسان الغرب  
ودروعهم ، وإن سرتهم حاشيتهم النسائية . فقد كانت اليانور المتعبة  
تصاحب زوجها لويس ، وكان الشعراء يصحبون الملكة ، ونبلاء فلاندرز  
وطلوشة يصطحبون معهم أزواجهم ، وكانت وسائل النقل التي مع الفرنسيين  
مثقلة بالحقائب والصناديق الملأى بالثياب ، ومواد التجميل ، يراد بها  
الحفاظة على جمال تلك السيدات في الجواء المتقلبة وفي صروف الدهر  
والحرب . وعجل مانويل بنقل الجيشين في مضيق البسفور ، وأمد اليونان  
بالتقود المنخفضة القيمة ليتعاملوا بها مع الصليبيين . وكثيراً ما أدى نقص  
المؤن في آسية ، وارتفاع الأثمان التي يطالب بها اليونان ، إلى النزاع بين  
المتقدمين ومن يريدون إنقاذهم من أعدائهم ، وكان مما أحزن فردريك  
ذا اللحية الصهباء أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقة  
« الكفار » . وأصر كتراد على أن يسير في الطريق الذي سارت فيه الحملة

الصليبية الأولى مخالفاً بذلك نصيحة مانويل . وتخطب الألمان في سيرهم على الرغم من مرشديهم ، أو لعل ذلك كان بفعل مرشديهم ، فاجتازوا بطاحا بعد بطاح خالية من موارد الطعام ، ووقعوا في كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون ، ودب في قلوبهم اليأس لكثرة من هلك منهم . والتقى جيش كتراد عند دورليوم ، حيث هزمت الحملة الأولى جيش قلعج أرسلان ، بقوة المسلمين الرئيسية ، ومنى فيها بهزيمة ساحقة ، لم ينج فيها من جيش المسيحيين أكثر من واحد من كل عشرة . وخذع الجيش الفرنسي الذي كان متأخراً وراء الألمان بمسافة طويلة بما جاءه من أخبار عن انتصار الألمان ، فتقدم في غير حذر ، وقضى على الكثيرين من رجاله الجوع وهجمات المسلمين . ولما وصل إلى أضايا أخذ لويس يساوم رؤساء بحارة السفن اليونانية على نقل جيشه بطريق البحر إلى طرسوس أو أنطاكية المسيحيين ، وطالب أولئك الرؤساء بأجور باهظة عن كل شخص تحمله السفن ، فقبل لويس وطائفة من النبلاء ، وإليانور ، وسرب من السيدات الانتقال ، وتركوا بقية الجيش الفرنسي في أضايا ، وانقضت جيوش المسلمين على المدينة وقتلوا كل من فيها تقريباً من الجنود الفرنسيين ( ١١٤٨ ) .

ووصل لويس إلى بيت المقدس ومعها النساء وليس معه جيش ، كما وصل إليها كتراد بقلول الجيش الذي غادر به راتسبون . وحشد الملكان من هذه القلول ومن كان في العاصمة من الجنود جيشاً مرتجلاً ، وزحفوا به على دمشق ؛ وكانت قيادته موزعة بين كتراد ، ولويس ، وبولدوين الثالث ( ١١٤٣ - ١١٦٢ ) . وشجر النزاع في أثناء الحصار بين النبلاء على الطائفة التي تحكم المدينة بعد سقوطها ، وتسرب عمال المسلمين إلى الجيش المسيحي ، ورشوا بعض الزعماء بالمال فجعلوهم يقعدون بلا عمل أو ينسحبون من الميدان ( ٢٧ ) . ولما أن ترامت الأنباء بأن أميرى حلب والموصل يزحفان بجيش كبير لفك الحصار عن دمشق تغلب دعابة الانسحاب ، فانقسم الجيش المسيحي إلى جماعات قليلة فرت إلى أنطاكية أو عكا ، أو بيت

المقدس . . وهزم كتراد وأصيب بالمرض ورجع مسربلا بالعار إلى ألمانيا ، وعادت إليانور وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا ، أما لويس فقد بقى في فلسطين عاما آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة .

وارتاحت أوروبا لما أصيبت به الحملة الصليبية الثانية من إخفاق شنيع ، وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الله جل جلاله أن يذل المدافعون عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير ، وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خيالي متهور ، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم ، وقام في أماكن متفرقة بعض المتشككة الجريئين يجادلون في القواعد الأساسية للدين المسيحي . ورد عليهم برنار بقوله إن أساليب الله سبحانه لا تدركها عقول البشر ، وإن الوبال الذى حل بالمسيحيين ربما كان عقابا لهم على ما ارتكبوا من ذنوب . ولكن الشكوك الفلسفية التى أشاعها أبلار Abelard ( المتوفى عام ١١٤٢ ) أخذت من ذلك الوقت تجد من يعبر عنها حتى بين جمهرة الشعب نفسه ، وسرعان ما خبت جنوة التحمس للحرب الصليبية ، وتأهب عصر الإيمان للدفاع عن نفسه بالسيف والنار ضد الأديان الغريبة أو عدم الإيمان بأديان على الإطلاق .

## الفصل الخامس

### صلاح الدين

وكانت حضارة جديدة عجيبة قد نشأت في سوريا وفلسطين المسيحتين . ذلك أن الأوربيين الذين استوطنوا هذين البلدين منذ عام ١٠٩٩ قد تزوروا شيئاً فشيئاً بالزى الشرقى ، فلبسوا العامة والقفطان اللذين يواثمان مناخ تلك البلاد ذات الشمس والرمال ، وزاد اتصافهم بمن يعيشون في تلك المملكة من المسلمين ، فقل بذلك ما بين الجنسين من تنافر وعداء ، فأخذ التجار المسلمون يدخلون بكامل حريتهم البلدان المسيحية ويبيعون أهلها بضاعتهم ، وكان المرضى من المسيحيين يفضلون الأطباء المسلمين واليهود على الأطباء المسيحيين<sup>(٢٨)</sup> ، وأجاز رجال الدين المسيحيون إلى المسلمين أن يؤموا المساجد للعبادة ، وأخذ المسلمون يعلمون أبناءهم القرآن في المدارس الإسلامية القائمة في أنطاكية وطرابلس المسيحتين ، وتعهدت الدول المسيحية والإسلامية بأن تضمن سلامة التجار والمسافرين الذين ينتقلون من إحداهما إلى الأخرى . وإذا كان الصليبيون لم يأتوا معهم إلا بعدد قليل من زوجاتهم فقد اتخذ كثيرون ممن أقاموا منهم في الدول المسيحية لهم زوجات سوريات ، وسرعان ما كوّن أبناء هذا الزواج المختلط عنصراً كبيراً من سكان الدول الجديدة ، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب اليومي العامة للسكان ، وعقد الأمراء المسيحيون أحلافاً مع الأمراء المسلمين ضد منافسيهم من المسيحيين ، كما كان الأمراء المسلمون في بعض الأحيان يستعينون « بالمشركين » في شئون السياسة والحرب ، ونمت صلات المودة الشخصية بين المسيحيين والمسلمين . وقد وصف الرحالة ابن جبير الذي طاف بسوريا المسيحية في عام ١١٨٣ بنى دينه المسلمين بأنهم ينعمون بالرخاء ويلةون معاملة حسنة على يد الفرنجة . وكان مما

سأه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة ، ولكنه يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التي وفدوا إليها والتي هي أرقى من حضارتهم (٢٩) .

وظلت مملكة أورشليم اللاتينية في سنى السلم الأربعين التي أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات الداخلية ، على حين أن أعداءها المسلمين كانوا يسرون بخطى حثيثة نحو الوحدة . فقد مدّ نور الدين سلطانه من حلب إلى دمشق ( ١١٧٥ ) ، ولما مات أخضع صلاح الدين لسلطانه مصر وسوريا الإسلامية ( ١١٧٥ ) ؛ ونشر تجار جنوى ، والبندقية ، وبيزا الاضطراب في الثغور الشرقية بمنافساتهم القتالة . وفي أورشليم أخذ الفرسان يتنازعون للاستيلاء على العرش . ولما استطاع جاي ده لوزينان أن يشق إليه طريقه بالختل ( ١١٨٦ ) ، استاءت لذلك طبقة الأشراف ، حتى قال أخوه جوفرى : « إن يكن جاي هذا ملكا فأنا خليق بأن أكون إلهاً » . ونصب ريجلند أمير شاتيون *Reginald of Chatillon* نفسه أميراً مستقلاً في قلعة الكرك العظيمة وراء نهر الأردن ، على حدود بلاد العرب ، وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك اللاتينى وصلاح الدين ، وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب ، ويهدم قبر النبي في المدينة ، ويدك أبنية الكعبة في مكة (٣٠) . وأبجرت قوته الصغيرة المؤلفة من الفرسان المغامرين في البحر الأحمر ، واتجهت نحو المدينة ؛ ولكن سرية مصرية باغتتها ، وقتلتها عن آخرها إلا عدداً قليلاً فروا مع ريجلند ، وبعض الأسرى الذين سيقوا إلى مكة ، وذبحوا في يوم عيد النحر ( ١١٨٣ ) .

وكان صلاح الدين في هذه الأثناء قد قنع بشن بعض الغارات الصغيرة على فلسطين ؛ فلما رأى ما فعله ريجلند ثارت حميته الدينية ، فأخذ ينظم من جديد جيشه الذي فتح به دمشق ، والتقى بقوات المملكة اللاتينية في معركة غير حاسمة عند مرج ابن عامر ذى الشهرة التاريخية ( ١١٨٣ ) ، ثم هاجم ريجلند عند

الكرك بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت ، ولكنه لم يستطع دخول القلعة الحصينة . وفي عام ١١٨٥ وقع مع الملكة اللاتينية هدنة تدوم أربع سنين ؛ ولكن ريجنلد مل فترة السلم الطويلة ، فاعترض في عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ، ونهب كثيرا من متاعها وأسر عدداً من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريجنلد : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » . ولم يأت محمد ؛ ولكن صلاح الدين ثارت ثائرتة ، فأعلن الجهاد على المسيحيين ، وأقسم ليقتلن ريجنلد بيده .

ونشبت المعركة الفاصلة في الحروب الصليبية كلها عند حطين بالقرب من طبرية في اليوم الرابع من شهر يولييه سنة ١١٨٧ . وكان صلاح الدين ملما بمعالم الأرض فاختر لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء ؛ ودخل المسيحيون ميدان المعركة يلهثون من الظمأ بعد أن اخترقوا السهول في حر متتصف الصيف المحرق . وانهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الصليبيين ، فأشعلوا النار في الأعشاب البرية ، وحامت الريح الدخان فزاد متاعب الصليبيين . وفي هذا الاضطراب الأعمى انفصل مشاة الفرنجة عن فرسانهم ، وقتلوا عن آخرهم ؛ وبعد أن ظل الفرسان يقاتلون قتال اليائسين ضد السلاح ، والدخان ، والظمأ خروا منهوكى القوى ، فقتل منهم من قتل وأسر الباقون . ولم تظهر جيوش المسلمين شيئاً من الرأفة بفرسان المعبد أو المستشفى ، وأمر صلاح الدين أن يوثنى له بالملك جاي والدوق ريجنلد ، فلما أقبلا عليه قدم الشراب إلى الملك دليلاً على أنه قد عفا عنه ، أما ريجنلد فقد خيره بين الموت والإيمان برسالة النبي ، فلما رفض قتله . وكان مما غنمه المسلمون في هذه المعركة الصليب الذى كان الصليبيون يتخذونه علماً لهم في المعركة ، ويحمله فيها أحد القساوسة ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد . ولما رأى صلاح الدين أنه لم يبق أمامه جيش يخشى بأسه ، زحف لتحرير عكا ، وأطلق فيها سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وكافأ جنوده بما غنمه

من ثروة هذا المرفأ الكثير المتاجر ، وخضعت فلسطين كلها تقريباً لصلاح الدين وبقيت في قبضة يده بضعة أشهر .

ولما اقترب من بيت المقدس خرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح ، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله ، وإنه لا يرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها . وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة في تحصينها ، وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلاً دون أن يقف أحد في سبيلهم ، ووعدهم بأن يسد كل ما ينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة ، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملاً في إنقاذهم ، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة ، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة ، أما إذا لم يكن لهم أمل في هذه المعونة ، فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، وتعهد في هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم (\*) . ورفض المندوبون هذا العرض ، وقالوا لأنهم لن يسلموا المدينة التي مات فيها المسيح منقذ الخلق (٣١) . ولم يطل حصار المدينة أكثر من اثني عشر يوماً ، ولما أن استسلمت بعدها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب ( ٤٧٥٠ ؟ ريبالا أمريكيا ) عن كل رجل ، وخمس قطع عن كل امرأة ، وقطعة واحدة عن كل طفل ، أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت ( ٢٧٠٠٠٠ ؟ ريبال أمريكي ) التي بعث بها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ، وقبلت المدينة هذه الشروط « بالشكر والتعجب » على حد قول أحد الإخباريين المسيحيين ، ولعل بعض العارفين من المسيحيين قد وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى في عام ١٠٩٩ . وطلب العادل أخو صلاح الدين أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين بقوا من غير فداء ، فلما أجب إلى طلبه أعتقهم جميعاً ، وطلب بليان Balian زعيم المقاومين

(٥) ألا ما أعظم هذا النبل ! ( المترجم )

المسيحيين هدية مثلها ، وأجيب إلى ما طلب ، وأعتق ألفاً آخرين ، وحذا  
حنوه المطران المسيحي وفعل ما فعل صاحبه ، وقال صلاح الدين إن أخاه  
قد أدى الصدقة عن نفسه ، وإن المطران وبالبيان قد تصدقا عن نفسيهما ،  
وإنه يفعل فعلهما ، ثم أعتق كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن ؛  
ويلوح أن نحو خمسة عشر ألفاً من الأسرى المسيحيين بقوا بعدئذ من غير  
فداء فكانوا أرقاء ؛ وكان ممن افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا  
أو أسروا في واقعة حطين ورق قلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء  
والبنات فأطلق سراح من كان في أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن  
(ومن بينهم جاي) أما النساء والبنات اللاتي قتل أزواجهن وآبائهن  
فقد وزع عليهن من ماله الخاص ما أطلق السنهن بحمد الله ، وبالثناء على  
ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة (٣٢) (\*) ذلك ما يقوله  
إرنول Ernoul مولى باليان .

وأقسم الملك والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح ضده مرة  
أخرى ، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن في طرابلس وأنطاكية المسيحيين  
حتى أحلها حكم رجال الدين من يمينها المغلظة ، وأخذوا يدبران الخطة  
للتأثر من صلاح الدين (٣٣) . وأجاز السلطان لليهود أن يعودوا إلى السكنى  
في بيت المقدس ، وأعطى المسيحيين حق دخولها ، على أن يكونوا غير  
مسلحين ، وساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم (٣٤) ؛ وطهرت  
قبة الصخرة التي حولها المسيحيون إلى كنيسة بأن رشت بماء الورد ، وأزيل  
منها الصليب الذهبي الذي كان يعلوها ، بين تهليل المسلمين وأنين المسيحيين ؛  
وسار صلاح الدين على رأس جيشه لحصار عكا ، ولما وجدها أمنع من  
عقاب الجوارح سرح الجزء الأكبر من جنده وانسحب وهو مريض متعب إلى  
دمشق (١١٨٨) في الخمسين من عمره ؛

## الفصل التاسع

### الحملة الصليبية الثالثة

١١٨٩ - ١١٩٢

وكان احتفاظ المسيحيين بمدائن صور أنطاكية ، وطرابلس مما ترك في قلوبهم أثارة من الأمل . وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط ، متأهبة لنقل المحاربين الصليبيين إذا أدوا لها أجورها . وعاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوروبا ، وأخذ يروى في الاجتماعات التي تعقد في إيطاليا ، وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فردريك بربرسا إلى حد دفع الإمبراطور العظيم وهو في سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه من فوره ( ١١٨٩ ) ، وحياه العالم المسيحي كله وخلع عليه اسم موسى الثاني الذي سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة . ولما عبر الجيش الحديد مضيق الهلسنت عند غاليبولى ، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً جديداً ، كرر أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسها ؛ واقتفت أثره العصابات التركية وأزعجته ، وقطعت عنه المؤن ، فمات مئات من رجاله جوعاً ، ومات فردريك ميتة غير شريفة إذ غرق في نهر سالف الصغير في قلبقية ( ١١٩٠ ) ، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا .

وكان رتشرد الأول ( الأنكتار ) الملقب « قلب الأسد » قد توج من زمن قريب ملكاً على إنجلترا وهو في الحادية والثلاثين من عمره ، فصمم هذا الملك على أن يحرب حظه مع المسلمين . وإذا كان يخشى أن يغير الفرنسيون في أثناء قيامه على الأملاك الإنجليزية في فرنسا ، فقد أصر على أن يصحبه فليب أغسطس ، ووافق الملك الفرنسي ، وكان وقتئذ شاباً في الحادية والعشرين

من عمره ، وتلقى الملكان الشابان الصليب من وليم كبير أساقفة صور باحتفال مهيب في فيزلاى ، وأبحر جيش رتشرد الموثف من النورمان ( لأن الإنجليز لم يشترك منهم فى الحروب الصليبية إلا القليل ) من مرسيليا ، وأبحر جيش فليب من جنوى على أن يلتقى الجيشان فى صقلية ( ١١٩٠ ) ، فلما التقيا فيها شجر النزاع بينهما واستسلما للهو وقضيا فى نزاعهما وهو هما نصف عام . وأغضب تانكرد ملك صقلية رتشرد ، فانزاع هذا منه مسينا « بأسرع مما يتطلبه من القس ترتيل صلاة السحر » ، ثم ردها إليه نظير أربعين ألف أوقية من الذهب ؛ فلما توفر له المال بهذه الطريقة أبحر بجيشه إلى فلسطين . ومخطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص ، وقبض حاكمها اليونانى على بحارة السفن وزجهم فى السجون ، فوقف رتشرد عندها بعض الوقت ، وفتح الجزيرة ، وأعطاها إلى جاي ده لوزينان ملك بيت المقدس المشرد . وبلغ عكا فى يونيه من عام ١١٩١ بعد عام من مغادرته فيزلاى ، وكان فليب قد سبقه إليها . وكان حصار المسيحيين لعكا قد دام تسعة عشر شهراً ، وهلك فيه منهم عدة آلاف ، ثم استسلم المسلمون بعد أسابيع قليلة من وصول رتشرد ؛ وطلب المنتصرون من المغلوبين مائتى ألف قطعة من الذهب ( نحو ٩٥٠.٠٠٠ ريال أمريكى ) ، وأن يسلموا إليهم ١٦٠٠ أسيراً من صفوة أهل المدينة ، وأن يردوا إليهم الصليب الحق . ووعدهم أهل المدينة أن يجيبوهم إلى ما طلبوا ؛ وأيد صلاح الدين هذا الاتفاق ، وسمح للمسلمين من سكان عكا ما عدا الألف والستائة السالفي الذكر أن يغادروا المدينة ومعهم من المون ما يستطيعون حمله . ثم أصيب فليب أغسطس بالحمى فعاد إلى فرنسا وترك وراءه قوة فرنسية مؤلفة من ١٠ر٥٠٠ رجل ، وأصبح رتشرد القائد الوحيد للحملة للصليبية الثالثة .

وبدأت وقتئذ طائفة من الوقائع للشوشة الغذة ، تعاقبت فيها الضربات والمعارك مع التحيات والمجاملات ؛ وأظهر فيها الملك الإنجليزى والسلطان الكردى

بعض ما تتصف به حضارتاهما وديناهما من أنبل الصفات وأظرفها . وليس معنى هذا أن كلا الرجلين كان من أولياء الله الصالحين ، فقد كان في وسع صلاح الدين أن يكيل بكل ما لديه من بأس الضربات المميتة لعدوه إذا بدا له أن أهدافه الحربية تتطلب هذا ؛ وكذلك سمح رتشرد ذو النزعة الروائية الشعرية لنفسه أن يفعل ما لا يتفق مع حياته النبيلة . من ذلك أنه لما تباطأ زعماء حكا المحاصرة في تنفيذ شروط الاتفاق المعقود بينهم ، أمر رتشرد أن تضرب رموس ٢٥٠٠ من الأسرى المسلمين أمام أسوار المدينة لينبه بذلك الأهليين إلى وجوب الإسراع في تنفيذ الشروط<sup>(٣٥)</sup> ؛ فلما بلغ هذا النبأ صلاح الدين ، أمر بأن يعدم كل من يقع بعدئذ في الأسر أثناء المارك مع الملك الإنجليزي . ثم بدل رتشرد نغمته ، فعرض أن ينهى الحروب الصليبية بأن يزوج أخته جوان للعادل أخى صلاح الدين ، ولكن الكنيسة عارضت هذه الفكرة فتخلى رتشرد عنها .

وأيقن رتشرد أن صلاح الدين لن يصبر على الهزيمة ، فأعاد تنظيم قوته ، وتأهب للسير ستين ميلا نحو الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر ليفك الحصار عن يافا التي كانت وقتئذ في أيدي المسيحيين ويحاصرها المسلمون ، ورفض كثير من النبلاء أن يسيروا معه ، وفضلوا أن يتخلفوا في عكا ، ويحيكوا الدسائس للاستيلاء على عرش فلسطين ، لأنهم كانوا واثقين من أن رتشرد سيستولى عليها . وعاد الجنود الألمان إلى بلادهم ، وكثيرا ما كان الجنود الفرنسيون يعصون أمر الملك الإنجليزي ويفسدون عليه خططه الحربية ؛ كذلك لم يكن العامة مستعدين لبذل جهود جديدة في سبيل فلسطين . ويقول المؤرخ الإخباري المسيحي لحملة رتشرد الصليبية إن المسيحيين المتصبرين بعد هذا الحصار الطويل :

استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن يغادروا المدينة المليئة بأسباب النعم - أحسن أنواع الخمر ، وأجمل الغانيات . وأطلق الكثيرون منهم لشهواتهم العنان

فأحلت أخلاقهم وذنسوا المدينة بترفهم ، حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلاً من طيشهم ونهمهم (٣٦) .

وزاد الطين بلة أن رتشرد أمر ألا يصحب الجيش من النساء إلا الفسالات ممن لا يغرین الجند بالإثم . وعوض رتشرد عيوب جنوده بمقدرته الفذة على القيادة ، وحذقه في الهندسة العسكرية ، وشجاعته الملهمة في الميدان . وكان في هذه الصفات كلها متفوقاً على صلاح الدين وعلى سائر قادة الحروب للصليبية المسيحيين .

والتقى جيشه بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصاراً غير حاسم (١١٩١) ، وطلب مواصلة القتال ، ولكن رتشرد سحب جنوده إلى داخل أسوار يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح ؛ وبينما كانت المفاوضات دائرة بين القائدين اتصل كثراد مركز منفرات Conrad Marquels of Montferrat ، الذي كان يتولى أمر صور ، في مفاوضات مستقلة مع صلاح الدين ، وعرض عليه أن يصبح حليفه ، وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين ، إذا وافق صلاح الدين على أن يتملك هو صيدا وبيروت . ولكن صلاح الدين أجاز لأخيه ، على الرغم من هذا العرض ، أن يعقد مع رتشرد صلحاً يترك للمسيحيين جميع ما كان بيدهم وقتئذ من المدن الساحلية ، ونصف بيت المقدس . وبلغ من سرور رتشرد بهذه الشروط أن خلع على ابن السفير المسلم لقب فارس (١١٩٢) ؛ لكنه حين سمع بعد قليل من الوقت أن صلاح الدين يواجه بعض المتاعب في الشرق ، رفض شروطه ، وحاصر داروم واستولى عليها ، وتقدم حتى أصبح على بعد اثني عشر ميلاً من بيت المقدس . ودعا صلاح الدين جنوده إلى حمل السلاح ، وكان قد سرحهم لئسريحوا في فصل الشتاء ، وحدث للشقاق في هذه الأثناء في معسكر المسيحيين ، وأبلغهم كشافتهم أن الآبار التي في طريق بيت المقدس قد سممت ، وأن الجيش الزاحف عليها لن يجد ماء للشرب ،

وعقلوا مجلسا للنظر فيما يجب أن يفعلوه ، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة البعيدة عنهم بنحو ٢٥٠ ميلا . وكان رتشرد قد سئمت نفسه هذه الفعال ، وعافتها ، وملأ اليأس قلبه ، فانسحب إلى عكا وأخذ يفكر في العودة إلى إنجلترا .

ولكنه لما سمع أن صلاح الدين عاود الهجوم على يافا ، وأنه استولى عليها بعد يومين لا أكثر ، أبي عليه كبرياؤه أن ينكص عن غرضه ، وبعث في نفسه روحا جديدة ، وأقلع من فوره إلى يافا مع من استطاع أن يحشدهم من الجنود . ولما وصل إلى الميناء نادى بأعلى صوته « الويل للقاعد ! » وقفز إلى وسطه في البحر ، وأخذ يلوح ببلطته الدنمرقية الشهيرة ويقتل كل من يقف في سبيله ، ثم قاد جنوده إلى داخل المدينة ، وأخرج منها جميع الجنود المسلمين . كل هذا ولم يكد صلاح الدين يعرف ما حصل ( ١١٩٢ ) . فلما عرفه استدعى القسم الرئيسي من جيشه لإنقاذ المدينة ، وكان عدد رجاله يربو كثيراً على عدد جنود رتشرد الثلاثة الآلاف ، ولكن شجاعة الملك وجرأته أكسبته النصر . ولما رأى صلاح الدين أن رتشرد راجلا بعث إليه بجواد من عنده ، وقال إن من للعار أن يقاتل هذا الرجل الشهم راجلا . وغضب جنود صلاح الدين من هذا العمل وأمثاله فلم يعودوا يطيقون صبراً عليه ؛ وأخذوا يلومونه على أن ترك جنود حامية يافا أحياء ليقاتلوه فيها مرة أخرى . ثم سار رتشرد آخر الأمر - إذا جاز لنا أن نصدق رواية القصة المسيحيين - أمام جيش المسلمين وحربته مدلاة إلى جانبه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته (٢٧) .

ثم تبدلت الحال في اليوم الثاني ، وجاءت الأمداد إلى صلاح الدين ، واستولى الممل مرة أخرى على رتشرد ، وحبس عنه فرسان عكا وصور معوتهم ، فأرسل يطلب الصلح من جديد . واشتدت عليه الحمى فطلب فاكهة وشراباً بارداً ،

فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكثرى والخوخ والتلج . وبطيبة  
الخاص . وفي اليوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ وقع البطلان شروط صلح يدوم  
ثلاث سنين ، وقسمت فلسطين قسمين ؛ فاحتفظ رتشرد بجميع ما فتحه  
من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا ؛ وسمح للمسلمين  
والمسيحيين بحرية الانتقال من أحد القسمين إلى الآخر ؛ وتعهد السلطان  
بجماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدي المسلمين  
( ولعل التجار الإيطاليين الذين يهتمهم قبل كل شيء أن يسيطروا على الثغور  
البحرية ، قد أقنوا رتشرد بالتخلي عن المدينة المقدسة نظير استيلائه على  
المدن الساحلية ) . وأقيمت المآدب والألعاب احتفالا بالصلح ؛ ويقول  
صاحب سيرة رتشرد فى هذا : « والله وحده يعلم مقدار السرور الذى ملأ  
قلوب الشعبين ، وهو سرور يجلب عن الوصف » (٣٨) . وزالت إلى حين  
الأحقاد من الصدور ؛ ولما ركب سفينته إلى إنجلترا أرسل رسالته الأخيرة  
إلى صلاح الدين يتحدها ، ويتوعده بأنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولى  
على بيت المقدس . وأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد أن تقطع يده  
فإنه يفضل أن يقطعها رتشرد ( الأنتكار ) لا أى رجل سواه (٣٩) .

وبعد فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ، وعدله قد غلبت بهاء  
رتشرد ، وشجاعته ، ومهارته الحربية ؛ كما غلب المسلمون بفضل  
إخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ،  
والذين يعوزهم الولاء للفرض والإخلاص فى المقصد ؛ وكان قصر خط التكوين  
من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين على البحار . وكانت  
الفضائل والأخطاء المسيحية أبرز فى السلطان منها فى الملك المسيحى ؛  
فقد كان صلاح الدين مستمسكاً بدينه إلى أبعد حد ، وأجاز لنفسه أن  
يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى ؛ ولكنه كان فى العادة شفيقاً  
على الضعفاء ، رحماً بالمظلومين ، يسمو على أعدائه فى وفاته بوجهه سمواً

جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي « الخاطئ » في ظنهم رجلا يصل في العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا (٤٠) ؛ وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية (\*) :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ؛ وأمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ؛ وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أمين وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ؛ فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس ؛ ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ؛ واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم (\*\*). »

ومات في عام ١١٩٣ ولم يتجاوز سنه الخامسة والخمسين .

---

(٥) الحق أن عظمة صلاح الدين منشؤها استمساكه بأوامر دينه واتصافه بفضائل هـللا الدين . . . ( المترجم )

(٥٥) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الوصية عن كتاب « صلاح الدين » لـاستانل لين بول ونقلناها نحن عن سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية » تأليف القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . ( المترجم )

## الفصل السابع

### الحملة الصليبية الرابعة

١٢٠٢ - ١٢٠٤

أفلحت الحملة الصليبية الثالثة في أخذ عكا ولكنها لم تفلح في الاستيلاء على بيت المقدس ، وكانت هذه نتيجة ضئيلة ميثسة لحملة اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا . وكان غرق بربرسا ، وفرار فيليب أغسطس ، وإخفاق رتشرد ، ودسائس الفرسان المسيحيين في الأرض المقدسة التي لم يرعوا فيها واجباً أو ضميراً ، أو النزاع الذي قام بين فرسان المستشفى وفرسان المعبد ، وتجدد الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، كل هذا قد حطم كبرياء أوروبا ، وأذلها ، وأضعف ثقة العالم المسيحي بها . ولكن موت صلاح الدين المبكر ، وانقسام دولته بعد وفاته ، بعث في قلوب العالم المسيحي آمالاً جديدة ، فلم يكذب إنوسنت الثالث Innocent III يجلس على عرش البابوية ( ١١٩٨ - ١٢١٦ ) ، حتى أخذ يطالب العالم المسيحي ببذل مجهود جديد ، وقام فلك ده نوي Fnik de Neuilly ، وهو قس ساذج ، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة . وكانت نتيجة الدعوة ميثسة ؛ فقد كان الإمبراطور فردريك الثاني طفلاً في سن الرابعة ؛ وكان فيليب أغسطس يرى أن حملة صليبية واحدة تكفيه طوال حياته ، ونسى رتشرد كلماته الأخيرة لصلاح الدين فأخذ يسخر من دعوة فلك ، ويقول له : « إنك تدعوني إلى التخلي عن بناتي الثلاث - الكبرياء ، والبخل ، والانغماس في الملاذ ، فدنونك هي لأجدر الناس بها : كبرياتي لفرسان المعبد ، وبخلي لرهبان سيتو Citeaux ، وانغماسي في الملاذ إلى المطارنة » (٤٢) . ولكن لإنوسنت واصل دعوته ، وقال إن حملة توجه إلى مصر مقدر لها الفوز بفضل سيطرة الإيطاليين على البحر المتوسط ، ثم تتخذ مصر الغنية الحصبة قاعدة للرحف

على بيت المقدس : ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة على أن تعد ما يلزم لنقل ٤٥٠٠ من الفرسان والخيول ، و ٩٠٠٠ من أتباعهم ، وعشرين ألفاً من المشاة ، وما يكفي هذه القوة من المؤن تسعة شهور ، كل هذا في نظير ٨٥٠٠٠٠ ر ٨٥٠٠٠٠ ر ( نحو ٨٥٠٠٠٠٠ ر ) . ورضيت أيضاً أن تدمم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية<sup>(٤٣)</sup> . على أن البنادقة لم يكن في عزمهم أن يهاجروا مصر ، فقد كانوا يكسبون منها الملايين في كل عام بما يصلرونه إليها من الخشب ، والحديد والسلاح ، وباستيراد العبيد ؛ ولم يكونوا يريدون أن يخاطروا بضياح هذه التجارة بالاشتراك في الحرب ، أو باقتسامها مع بيزا وچنوى . ولهذا فإنهم وهم يفاوضون لجنة من الصليبيين عقدوا خلفاً سرىا مع سلطان مصر يضمون بمقتضاه سلامة تلك البلاد من الغزو (١٢٠١)<sup>(٤٤)</sup> . ويقول إرنول Ernoul المؤرخ الإخبارى المعاصر إن البندقية حصلت على رشوة كبيرة نظير تحويل الحملة الصليبية عن فلسطين<sup>(٤٥)</sup> .

وتجمعت الجيوش الحديدية في مدينة البندقية في صيف ١٢٠٢ . وكان من أبرز رجالها المركيز بنغاس من منت فرات ، والكونت لويس من بلوا Bliois ، والكونت بلدوين من فلاندرز ، وسيمون ده منت فورت الذى يستمد شهرته من الألبجنسيين ، وكان من بين أعيانها الكثيرين جيوفروا ده فيلهاردون Geoffroi de Villehardouin ( ١١٦٠ - ١٢١٣ ) ، مارشال شمبانيا الذى لم يقتصر عمله على ما اضطلع به من دور رئيسى فى الأعمال السياسية والحربية المتصلة بالحرب الصليبية ، بل إنه سجل تاريخها المعيب فى مذكرات سترت معايها ، وكانت بداية النثر الفرنسى الأدبى . وجاء معظم الصليبيين من فرنسا جرت بذلك عاداتها ، وكان قد طلب إلى كل رجل أن يأتى معه بقدر من المال يتفق مع موارده حتى يتجمع للحملة مبلغ ال ٨٥٠٠٠٠ ر ٨٥٠٠٠٠ ر الذى لابد من أدائها للبندقية تنفيذاً للشروط المتفق عليها معها : ونقص المبلغ المتجمع عن الواجب أدائه

بأربعة وثلاثين ألف مارك ، وحينئذ عرض إنريكو دندولو Enrico Dandolo اللوج الذى لا يكاد يبصر « ذو القلب العظيم » ، مدفوعاً إلى ما عرضه بكل ما أمده به من تقي وقداصة سنوه الأربع والتسعون ، عرض هذا اللوج أن ينزل عن المبلغ الباقي إذا ساعد الصليبيون مدينة البندقية على فتح مدينة زارا Zara ، وكانت هذه المدينة وقتئذ أهم ثغور البحر الأدريايوى بعد البندقية نفسها ؛ وكانت البندقية قد استولت عليها فى عام ٩٩٨ ، وكثيراً ما خرجت عليها وأخضعت لها ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه من أملاك المجر ، ومنفلها الوحيد إلى البحر . وكانت ثروتها وقوتها آخذتين فى الغناء ، ولهذا كانت البندقية تخشى منافستها لها فى تجارة البحر الأدريايوى . ووصف إنوسنت الثالث هذا الاقتراح بأنه اقتراح دنىء ، وأنذر كل من يشترك فيه بالحرمان ، غير أن أعظم البابوات شأناً وأقواهم سلطاناً لم يستطع أن يجعل صوته أعلى من رنين الذهب ، وهاجم الأسطولان المتحدان زارا ، واستوليا عليها بعد خمسة أيام ، وقسم الفاتحون الغنائم فيما بينهم ؛ ثم أرسل الصليبيون بعثة إلى البابا يرجون منه المغفرة ، فغفر لهم ، ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة ؛ فشكروا له غفران الخطيئة ، واحتفظوا بالغنيمة ؛ وتجاهل البنادقة أمر الحرمان ، وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثانى من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية .

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تعلمت شيئاً من الحملات الصليبية . ذلك أن هذه الإمبراطورية لم تقدم للصليبيين معونة تذكر ، ولكنها حصلت منهم على كسب عظيم ؛ فقد استردت الجزء الأكبر من آسية الصغرى ، وكانت تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى ما حل من الضعف بالغرب وبالإسلام فى كفاهما للاستيلاء على فلسطين . وكان الإمبراطور مانويل Manuel قد ألقى القبض على آلاف من البنادقة من القسطنطينية وألغى إلى حين ما للبندقية فى تلك المدينة من امتيازات تجارية (١١٧١) (٤٦) ؛ ولم يستنكف إيزاك أنجيلوس Isaac Angelus

أن يتحالف مع المسلمين (٤٧)؛ وفي عام ١١٩٥ خلعه أخوه ألكسيوس الثالث Alexius III وسجنه وفقاً عينيه؛ وفر ابن إسحق واسمه أيضاً ألكسيوس إلى ألمانيا، ثم جاء إلى البندقية في عام ١٢٠٢، واستغاث بمجلس شيوخها وبالصليبيين أن ينقلوا آباء ويعيدوه إلى عرشه، ووعدهم في نظير هذا العمل أن تساعدكم بيزنطية في حربهم على الإسلام. وعقد دندولو والأشراف الفرنسيون مع الأمير الشاب اتفاقاً عظيم الفائدة لهم: فقد أقنعوه أن يتعهد بأداء مائتي ألف مارك فضي إلى الصليبيين، وأن يجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل للخدمة في فلسطين، وأن يخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للبابا في رومة (٤٨). ولكن البابا إنوسنت الثالث نهى الصليبيين على الرغم من هذه المنح السخية عن مهاجمة القسطنطينية وأندرهم بالحرمان إذا فعلوا؛ ورفض بعض الأشراف أن يشتركوا في الحملة، ورأى قسم من الجيش أنه في حل من يمينه التي أقسمها بالاشتراك في الحملة الصليبية وعاد إلى أوطانه، ولكن فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة في أوروبا ظلت مستحوزة على الكثيرين من الصليبيين يصعب عليهم مقاومتها، ولهذا فإن الأسطول العظيم المكون من ٤٨٠ سفينة أقلع في أول يوم من شهر أكتوبر عام ١٢٠٢ وسط مظاهر الابتهاج والتهليل بينما كان القساوسة الواقفون عند أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spilritus (٤٩)، ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية في الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ١٢٠٣. ويقول فيل هاردون في وصفها:

وأؤكد لكم أن أولئك الذين لم يروا القسطنطينية من قبل قد فتحوا عيونهم واسعة، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن في العالم كله مدينة في مثل هذا الثراء، حين أبصروا الأسوار الشاححة، والأبراج الضخمة التي تتألف منها، والقصور المنيفة، والكنائس العالية التي لا يحصى عددها، ولا يعتقد إنسان بوجودها إلا إذا كان قد رآها بعينه، وعرف ما بلغت هذه المدينة سيده المدن

كلها من الطول والعرض . واعلموا أنه لم يكن بيننا رجل مهما بلغ من الشجاعة ، إلا اقتصر بدنه حين شاهدها ؛ وليس في هذا شيء من العجب ، لأن أحداً من الناس لم يقم منذ بداية العالم بعمل يضارع في جلاله هجومنا على تلك المدينة (٥٠) .

وأرسل المهاجمون بلاغاً نهائياً إلى ألكسيوس طلبوا فيه : أن يرد الإمبراطورية إلى الأخ الأعمى أو إلى ألكسيوس الصغير ، الذى كان يصحب الأسطول المغير ؛ فلما رفض ألكسيوس الثالث هذا الإنذار نزل الصليبيون إلى البر ، بعد مقاومة ضعيفة ، أمام أسوار المدينة ، وكان دنلولو الشيخ المسن أول من وطئت قدماه الأرض . وفر ألكسيوس الثالث إلى تراقيا ، وأخرج الأشراف اليون إسحق أنجيلوس من سجنه وأجلسوه بأنفسهم على العرش ، وأرسلوا باسمه رسالة إلى الزعماء اللاتين يقول فيها إنه ينتظر ابنه ليحييه . وبعد أن استخلص الصليبيون وعداً من إسحق بارتباطه بما تعهد لهم به ولده دخل ندولو والأشراف المدينة ، وتوج ألكسيوس الصغير إمبراطوراً بالاشتراك مع أبيه . ولما عرف اليونان الثمن الذى اشترى به هذا النصر انقلبوا عليه غاضبين ساخرين ؛ فأما العامة فقد أخذوا يحسبون مقدار ما يجب عليهم أداؤه من الضرائب لجمع ما وعد به منقذيه من المال ، وأما الأشراف فقد ساءهم وجود أرستقراطية غريبة وقوة أجنبية في المدينة ، وأما رجال الدين فقد رفضوا في غضب وحق أن يخضعوا لرومة . وحدث في هذه الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون في مسجد مقام في مدينة مسيحية ، فثار تآثرتهم وأشعلوا النار في المسجد ، وقتلوا المصلين . وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال ، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً . وقام أمير من البيت المالك وتزعم ثورة من أهل المدينة وقتل ألكسيوس الرابع ، وأعاد إسحق إنجيلوس إلى السجن ، وجلس على العرش وتسمى باسم ألكسيوس الخامس دوكاس

Alexius V. Ducas ، وأخذ يعد جيشاً يطرد به اللاتين من معسكرهم في غلطة . ولكن اليونان كانوا قد قضوا دهرأ طويلا وهم آمنون وراء أسوارهم ، فلم يحتفظوا بشيء من الفضائل المتصلة باسمهم الروماني ، فاستسلموا بعد شهر من الحصار ؛ وفر ألكسيوس الخامس ، وأخذ اللاتين الظافرون يعيشون في العاصمة كأنهم جراد منتشر ملتهم ( ١٢٠٤ ) .

وازداد نهمهم لطول ما حرموا من فريستهم الموعودة ، فانتقضوا على المدينة الغنية في أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده رومة نفسها على أيدي الوندال أو القوط . نعم إنه لم يقتل في هذه الحوادث كثيرون من اليونان - فلعل عدد القتلى لم يتجاوز ألفين ، أما السلب والنهب فلم يقف عند حد . ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز ؛ واقتحم الجنود البيوت ، والكنائس ، والخوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها ؛ ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر ، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ في أوربا الغربية بأثمان عالية . وعانت كنيسة أباصوفيا من النهب ما لم تعانه فيها بعد على يد الأتراك عام ١٤٥٣<sup>(٥١)</sup> ، فقد قطع مذبحها العظيم تقطيعاً لتوزع فضته وذهبه<sup>(٥٢)</sup> . وكان البنادقة ، وهم الذين يالفون المدينة التي كثيراً ما رحبت بهم تجاراً ، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها ، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص ، وامتدت أيديهم إلى التماثيل ، والأقشة ، والأرقاء ، والجواهر ؛ ونقلت الأربعة الجياد البرنزية التي كانت تطل على المدينة اليونانية ، وجعل بها ميدان القديس مرقس Piazza di San Marco . وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التي امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس على سائر الكنائس<sup>(٥٣)</sup> . وبذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات ، ولكن

إنوسنت الثالث أخذ يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ؛ فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين<sup>(٥٤)</sup> . وبددت في أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين في المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل ، فضاعت مسرحيات سفكليز ويورپديز التي ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها ولم ينج منها إلا القليل ، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت .

ولما ختمت حدة الاضطراب والنهب اختار أعيان اللاتين بلدوين أمير فلاندرز ملكا لمملكة القسطنطينية اللاتينية (١٠٢٤) ، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية . وقسمت الإمبراطورية البيزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كل منها أمير نبيل إقطاعي . وكانت البندقية حريصة على السيطرة على طرق التجارة فاستولت على هدر يانويل ، وإيبروس ، وأكارنانيا Acarnania ، والجزائر الأيونية ، وجزء من البلوونيز ، وجزيرة عوبية ، وجزائر الأرخبيل ، وغاليبولي ، وثلاثة أثمان القسطنطينية . وانتزعت من أهل جنوى « المصانع » البيزنطية ، والمعامل الخارجية ، واختار دندولو لنفسه ، وكان وقتئذ يترنح في ثيابه الإمبراطورية ، لقب « دوج البندقية » ، وسيد ربع الإمبراطورية الرومانية وثمانها<sup>(٨٥)</sup> . ولم يطل عمره بعد هذا فقد مات في زهو هذا النصر الذي ناله بفعال أئيمة لم يؤثبه عليها ضميره . واستبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين ، رسم الكثيرون منهم قساوسة لهذه المناسبة دون أن يكون لهم تاريخ سابق في شئون الدين ، ووافق إنوسنت الثالث على الاتحاد الرسمي بين الكنيستين اليونانية واللاتينية عن رضا

وطيب خاطر ، وإن ظل يحتج على الهجوم . وعاد معظم الصليبيين إلى  
أوطانهم مثقلين بالغنائم ، وأقام بعضهم في الأملاك الجديدة ، ولم يصل منهم  
إلى فلسطين إلا حفنة قليلة ، لم تعمل فيها عملا ما . ولعل الصليبيين قد ظنوا  
أن القسطنطينية بعد استيلائهم عليها ، ستكون قاعدة ضد الأتراك أقوى  
 مما كانت وهي بيزنطية ، ولكن النزاع بين اللاتين واليونان الذي دام أجيالا  
طوالا أنهك قوى العالم اليوناني ولم تفق الإمبراطورية البيزنطية من هذه  
الضربة القاصمة ، ومهد استيلاء اللاتين على القسطنطينية إلى استيلاء الأتراك  
عليها بعد مائتي عام من ذلك الوقت .

## الفصل الثامن

### إخفاق الحملات الصليبية

١٢١١ - ١٢٩١

لقد كانت فضائح الحملة الصليبية الرابعة ، مضافة في نحو عشر سنين إلى إخفاق الحملة الثالثة ، مما لا يرتاح له الدين المسيحي الذي واجه بعد زمن قليل بعث فلسفة أرسطو ، وفلسفة ابن رشد الدقيقة القائمة على تحكيم العقل . وأخذ المفكرون يجهدون عقولهم ليفسروا للناس كيف رضى الله أن يهزم ناصروه في تلك القضية المقدسة ، ولم يهب النصر إلا للبنادقة الأدياء . ولاح لنوى النفوس الساذجة في خلال هذه الشكوك أن لا سبيل إلى استرداد حصن المسيح الحصين إلا بالطهر والتجرد من الذنوب . ولهذا قام في عام ١٢١٢ شاب ألماني لا يعرف التاريخ من ماضيه إلا أن اسمه نقولاس Nicholas ، وأعلن أن الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الأطفال . وعارضه في ذلك رجال الدين وغير رجال الدين ، ولكن فكرته انتشرت انتشاراً سريعاً في عصر تسوده أكثر مما تسود سائر العصور موجات الحماسة العاطفية . وحاول الآباء بكل ما وسعهم من الجهد أن يمنعوا أبناءهم من الاستجابة لدعوته ، ولكن آلافاً من الغلمان (وبعض البنات في ثياب الغلمان) لا يزيد متوسط أعمارهم على الثانية عشرة تسللوا من بيوتهم وساروا وراء نقولاس ، ولعلمهم قد سرهم أن ينجوا من استبداد البيت إلى حرية الطريق . وخرج القسم الأكبر من هذا الحشد المؤلف من ثلاثين ألف طفل ، من مدينة كولوني ، وساروا بإزاء نهر الرين ، وفوق جبال الألب . وأهلك الجوع عدداً كبيراً منهم وفتكت الذئاب ببعض المتخلفين ، واختلط اللصوص بالزاحضين وسرقوا ثيابهم وطعامهم ؛ ووصل من نجا منهم إلى

جنوى حيث نخر منهم الإيطاليون عبدة المصالح الدنيوية ؛ ولم يجدوا سفناً  
تقلهم إلى فلسطين ؛ فلما استغاثوا بإنوسنت الثالث أجاهم بلطف أن يعودوا إلى  
أوطانهم ، فنههم من سمعوا النصيحة وقفلوا راجعين وهم حزاني مكتئبون ،  
فعبروا جبال الألب ، ومنهم من استقروا في جنوى ، وتعلموا فيها أساليب  
العالم التجارية .

هذا ما حدث في ألمانيا ، أما في فرنسا فقد قدم إلى فليب أغسطس في ذلك  
العام نفسه راع في الثانية عشرة من عمره يدعى استيفن ، وقال إن المسيح ظهر له  
وهو يرعى غنمه ، وأمره أن يقود جملة من الأطفال إلى فلسطين ، فأمره  
الملك أن يعود إلى غنمه ، ولكن عشرين ألفاً من الغلمان اجتمعوا رغم هذا  
وساروا وراء استيفن ؛ واجتازوا فرنسا إلى مرسيليا ، وكان استيفن قد  
وعدهم أن البحر سينشق عند هذه المدينة ليتمكن من الوصول إلى فلسطين  
راجلين ، ولم ينشق لهم البحر ، ولكن اثنين من أصحاب السفن عرضا  
عليهم أن ينقلهم إلى حيث يقصدون دون أن يتقاضوا منهم أجراً .  
فازدحم الأطفال في سبع سفن أقلعت بهم وهم ينشدون أناشيد النصر .  
وتحطمت اثنتان من هذه السفن بالقرب من سردانية وغرق كل من كانوا  
فيها ، وجمى بالباقيين من الأطفال إلى تونس أو مصر حيث بيعوا في أسواق  
الرقيق ، وشتق صاحبها السفن التي أقلتهم بأمر فردريك الثاني (٥٦) .

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وجه إنوسنت الثالث في أثناء انعقاد مجلس  
لاتران الرابع دعوة أخرى إلى أوروبا لاستعادة الأراضي المقدسة ، وعاد إلى الخطة  
التي حالت البندقية دون تنفيذها - خطة الهجوم على مصر . وغادرت الحملة  
الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا ، والنمسا ، والمجر في عام ١٢١٧ بقيادة أندرو Andrew  
ملك المجر ، وأفلحت في الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقى .  
وسقطت المدينة في أيديهم بعد حصار دام عاماً كاملاً ، وعرض عليهم الملك  
الكامل سلطان مصر وسوريا الجديد أن يصالحهم على أن يسلم لهم الجزء الأكبر من  
بيت المقدس ، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين ، ويعيد الصليب الحق . وطلب

الصلبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربية ، ولكن الكامل رفض هذا الطلب ، وبدأت الحرب من جديد ، ولكنها لم تجر كما يشتهي الصليبيون ، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد ، ثم عقدت هدنة تلوم ثماني سنين رد إلى الصليبيين بمقتضاها الصليب الحق ، ولكن دمياط أعيدت إلى المسلمين ، وجلا جميع الجنود المسيحيين عن أرض مصر .

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا وإيطاليا الشاب ؛ ذلك أنه أقسم بين الصليبيين في عام ١٢١٥ ، ووعد أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط ، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ في إيطاليا ، مضافاً إليها في أغلب الظن ضعف إيمانه ، لم يمكنه من أن يبر بقسمه ووعدته . فلما كان عام ١٢٢٨ زحف فردريك ، وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين ، على رأس الحملة الصليبية السادسة ، ولما وصل إلى فلسطين لم يلق أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين ، فقد أعرض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية . فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا أرسل رسله إلى الملك الكامل ، وكان يقود جيش المسلمين في نابلس ، ورد عليه الكامل رداً جميلاً ، وأعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الإمبراطور بلغة العرب ، وآدابهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وشرع الحاكمان يتبادلان الحجاملات والآراء ، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على السواء حين وقعا في عام ١٢٢٩ معاهدة أعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا ، ويافا ، وصيدا ، والناصرية ، وبيت لحم ، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين . وأجيز فوق ذلك فلهججاج المسيحيين أن يأتوا إلى هذا الفضاء ليؤدوا فيه صلواتهم في موضع هيكلي سليمان ، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق في بيت لحم . ونصت المعاهدة فوق ذلك على إطلاق جميع الأمور من الطرفين المتعاقدين ، وتعهد كلاهما أن يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور (٥٧) . وهكذا أفلح الإمبراطور الطريد فيما عجز

عنه المسيحيون في مائة عام كاملة ، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمان وهما متفاهمتان ، تحترم كلتاها الأخرى ، ووجدتا أن في وسعهما أن يعيشا معاً في صفاء ووثام . واغضب سكان الأرض المقدسة المسيحيون ، ولكن جريجورى التاسع نادى بأن تلك المعاهدة سبة للعالم المسيحي ، وأبى أن يقرها . ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون في فلسطين على بيت المقدس ، وعقدوا حلفاً بين القوة المسيحية في آسية ، وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم (١٢٤٤) . واستنجد سلطان مصر بأترك خوازم ، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها . وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين في غزة ، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة أخرى في أيدي المسلمين ( أكتوبر سنة ١٢٤٤ ) .

وبينا كان إنوسنت الرابع يدعو إلى حرب صليبية على فردريك الثانى ويعرض على كل من يقاتلون الإمبراطور في إيطاليا نفس المنح والمزايا التي يمنحها من يخدمون في الأراضي المقدسة ، نظم لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة . ذلك أنه لبس شارة الصليب بعد زمن قليل من سقوط أورشليم ، وأقنع نبلاء بلاده أن يخذوا حذوه ؛ ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثواباً غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب . وبذل الملك جهده للتوفيق بين إنوسنت وفردريك حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوروبا متحدة . لكن إنوسنت رفض وساطته ، وزاد على هذا الرفض أن بعث راهباً يدعى جيوفاني ده بيانو كريني Giovanni de Piano Carpini إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الأتراك . ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول . فلما حل عام ١٢٤٨ سار لويس على رأس الفرسان الفرنسيين ومعهم جان سيد جوانفيل الذي روى أعمال الملك في تاريخه الذائع الصيت . ووصلت الحملة إلى دمياط ، واستولت عليها بعد

قليل من وصولها ، ولكن فيضان النيل السنوى الذى لم يحسب الصليبيون  
حسابه حين وضعوا خطة الحملة بدأ فى وقت وصول الصليبيين ، وعمر  
البلاد بالماء فأحاط بالصليبيين وحصرهم فى دمياط مدة نصف عام . على  
أنهم لم يندموا لما أصابهم لأن « الأشراف » كما يقول جوائفيل « أخذوا  
يولون الولائم . . . كما أخذ العامة يصاحبون النساء الفاجرات » (٥٨) .  
ولما واصل الجيش زحفه ، كان الجوع والمرض ، والفرار ، قد أنهكت  
قوته وأنقصت عدده ، وأضعفه اختلال نظامه ، ففى هزيمة ساحقة عند  
المنصورة رغم استبساله فى الدفاع عن نفسه ، وتبدد شمله وولى الجنود  
الأدبار ، وأسر عشرة آلاف من المسيحيين من بينهم لويس نفسه ، وقد  
خارت قواه من وطأة الزحار ( ١٢٥٠ ) . وعالجه من مرضه طبيب عربى ،  
ثم أطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر شهراً بشرط أن يسلم دمياط ويفتدى  
نفسه بخمسة آلاف جنيه فرنسى ( ٣٨٠٠٠٠٠ ربال أمريكى ) . ولما أن  
قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها ، وقبل نصف  
الباقى ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يودى إليه النصف الآخر (٥٩) .  
وسار الملك على رأس فلول جيشه إلى عكا ، وأقام فيها أربع سنين ،  
يدعو فيها أوربا فى غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها وأن تنضم  
إليه فى حرب جديدة . وبعث فى هذه الأثناء وليم البربركوازى William  
of Rubruquois إلى خان المغول يعرض عليه للمرة الثانية دعوة إنوسنت -  
ولكنه لم يلتق منه غير ما لى فى الدعوة الأولى : ثم عاد فى عام ١٢٥٤  
إلى فرنسا .

وكانت السنون التى قضاها فى الشرق قد هدأت ما كان بين المسيحيين فيه  
من شقاق ، فلما غادره عاد هذا الشقاق سيرته الأولى ، فقامت بين أهل البندقية  
وجنوى بين عامى ١٢٥٦ و ١٢٦٠ حرب داخلية فى ثغور الشام ، انضمت فيها

جميع الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك ، وأنهكت قوى المسيحيين في فلسطين . واغتم بيبرس أحد السلاطين المماليك في مصر هذه الفرصة فزحف بجيشه على الساحل واستولى على المدن المسيحية بمدينة في إثر مدينة : قيصرية ( ١٢٦٥ ) ، وصفد ( ١٢٦٦ ) ، وبافا ( ١٢٦٧ ) ، وأنطاكية ( ١٢٦٨ ) . وقتل من وقع في الأسر من المسيحيين أو استرقوا ، وقاست أنطاكية من النهب والحرق ما لم تفق منه قط فيما بعد .

وئارت حمية لويس من جديد في شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى ( ١٢٦٧ ) ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته وقالوا إنها سخافة يلهاء ، وأبوا أن ينضموا إليه ؛ وحتى جوانجيل نفسه رفض رفضاً باتاً أن يشترك في الحملة الصليبية التالية . ونزل الملك - الحصيف في حكمه ، الأخرق في حربه - بقواته القليلة في بلاد تونس ؛ وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أمرها على اعتناق الدين المسيحي ، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب . ولكنه لم تكد تظاً قلماء أرض إفريقية حتى « أصيب بنزلة معوية شديدة » (٦٠) ومات وهو يردد لفظ « بيت المقدس » ( ١٢٧٠ ) . وبعد عام من ذلك الوقت نزل الأمير إدورد ، ولي عهد إنجلترا في عكا ، وقاد بعض هجمات جريئة قامت بها حاميتها ، ثم عاد مسرعاً إلى إنجلترا ليضع على رأسه التاج الإنجليزي .

وحلت بالمسيحيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين في بلاد الشام ، وشتقوا تسعة عشر من التجار المسلمين ، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية . وطلب السلطان الترضية الكافية عن هذا الاعتداء ؛ ولم يجب إلى طلبه ، فلم يسعه إلا أن يزحف على عكا أقوى المعاقل الأمامية المسيحية في فلسطين ، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً . فلما سقطت في

يده سمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفاً من الأسرى (١٢٩١) .  
وسرعان ما سقطت بعدئذ في أيدي المسلمين مدائن صور ، وصيدا ، وحيفا ،  
وبيروت . وبقى شبح مملكة أورشليم اللاتينية ماثلاً إلى حين في ألقاب  
بعض الزعماء ، وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان  
يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية « ليواصلوا السجال العظيم » ،  
ولكن أوروبا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضت أجلها .

## الفصل التاسع

### نتائج الحروب الصليبية

إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية من حيث أغراضها المباشرة التي دارت رحاها من أجلها قلنا إنها أخفقت لا محالة . ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان بقيت بيت المقدس في أيدي المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم . يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التي كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها ، ولم يبق في أيدي المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التي انزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية ، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية في رقتها ، وأسباب راحتها ، وتعليمها وأساليبها الحربية . يضاف إلى هذا كله أن الجهود الكبيرة التي بذلها البابوات لنشر لواء السلم على ربوع أوروبا بتوجيهها إلى غرض واحد قد تحطمت بفعل المطامع القومية ، وحروب البابوات « الصليبية » على الأباطرة .

ولم يبق الإقطاع مما أصابه من إخفاق في الحروب الصليبية إلا بأشد الصعاب . ذلك أن الذي كان يوائم النظام الإقطاعي هو المغامرات والبطولة الفردية في أضييق نطاق ، ولهذا لم تعرف كيف توفق بين أساليبها الخاصة وبين مناخ الشرق والحرب في الميادين النائية ، وأخطأت خطأ لا يغتفر لها في حل مشكلة التموين في خط مواصلاتها الطويل ؛ ثم إنها قد استنفدت في تلك الحروب ما لديها من عتاد ، وفقدت روحها المعنوية حين لم تقو على فتح بيت المقدس المسلمة بل فتحت بزنطية المسيحية . وكان كثيرون من الفرسان قد باعوا أملاكهم أو رهنوها للمرابين

أو الكنيسة أو الملوك ليحصلوا على المال اللازم للحروب ؛ وتخلوا من أجل المال عما كان لهم من حقوق في كثير من المدن القائمة في أملاكهم ، وأعفوا كثيرين من الفلاحين من الضرائب والالتزامات الإقطاعية المستقبلية بأثمان عاجلة ، وأفاد آلاف من أرقاء الأرض من الامتيازات التي هيأتها لهم الحروب الصليبية بأن تركوا الأراضي التي كانوا يعملون فيها ، ولم يرجع آلاف منهم إلى الضياع . وبينما كانت الثروة الإقطاعية والأسلحة الإقطاعية تتحول نحو الشرق ، كان سلطان الملوك الفرنسيين يقوى و ثراؤهم يزداد ، فكانت هذه القوة والزيادة من أهم آثار الحروب الصليبية . وضعفت في الوقت عينه قوة الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية : فقد ضاعت هبة أباطرة الغرب لعجزهم عن استرداد الأرض المقدسة ، ولنزاعهم مع البابوية التي أعلنت شأنها الحروب الصليبية . أما الدولة الشرقية ، فلم تستعد قط ما كان لها في سابق عهدها من قوة وشهرة ، رغم مولدها الجديد في عام ١٢٦١ . لكن الحروب الصليبية قد أفادت العالم الغربي هذه الفائدة : وهي أنه لولاها لاستولى الأتراك على القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣ بزم من طويل ، ذلك أنها أضعفت قوة المسلمين أنفسهم وجعلتهم أقل مقاومة لتيار المغول الجارف .

وحلت الكوارث ببعض المنظمات العسكرية . من هذا أن فرسان المعبد الذين نجوا من مذبحه عكا فروا إلى قبرص ، وانتزعوا في عام ١٣١٠ رودس من المسلمين ، واستبدلوا باسمهم القديم اسم فرسان رودس ، وظلوا يحكمون الجزيرة حتى طردهم منها الأتراك في عام ١٥٢٢ ، فانتقلوا منها إلى مالطة وأصبحوا فرسان مالطة ، وظلوا باقين حتى حل نظامهم في عام ١٧٩٩ . أما الفرسان التيوتون فقد نقلوا مقرهم الرئيسي بعد سقوط عكا إلى مارينبورج Marienburg في بروسيا التي انتزعوها من الصقالبة وضموها إلى ألمانيا . وأعاد فرسان المعبد تنظيم صفوفهم في فرنسا بعد أن أخرجوا من آسية ؛ وإذا كانت لهم أملاك واسعة غنية في جميع أنحاء

أوربا ، فقد أخذوا يستمتعون بما تدره عليهم هذه الأملاك ؛ وإذ كانت أملاكهم معفاة من الضرائب فقد كان في وسعهم أن يقرضوا المال بفوائد أقل من التي يتقاضاها اللبارد واليهود ، وجمعوا بعملهم هذا ثروة طائلة ، هذا إلى أنهم لم يكونوا كفرسان المعبد ينشئون المستشفيات والمدارس أو يقدمون المعونة للفقراء ؛ وأثارت أموالهم الطائلة المكنوزة ، ودولتهم المسلحة في داخل اللولة ، وعدم خضوعهم لسلطان الملوك أثارت هذه كلها حسد فليب الرابع الجميل لهم وخوفه منهم وغضبه عليهم ؛ فقبض في الثاني عشر من شهر أكتوبر عام ١٣١٠ على جميع من كان في فرنسا من فرسان المعبد دون سابق إنذار لهم ووضع الخاتم الملكي على جميع ممتلكاتهم . واتهمهم فليب باللواط ، وبأنهم فقدوا إيمانهم بالدين المسيحي لطول اختلاطهم بالمسلمين ، وبأنهم يتكروون المسيح ويصبغون على الصليب ، ويعبدون الأوثان ، ويخالفون المسلمين سراً ، وأنهم طاموا خانوا القضية المسيحية ، وحوكم السجناء أمام محكمة من المطارنة والرهبان الموالين للملك ، فأنكروا التهم الموجهة إليهم ، وعذبوا لكي يعترفوا ، فمنهم من علقوا من معاصمهم وكانوا يرفعون وينزلون فجأة ، ومنهم من وضعت أقدامهم عارية أمام الثيران ومنهم من دقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم ، ومنهم من كانت تقطع لهم سن كل يوم ، ومنهم من علقوا أوزان ثقيلة في أعضائهم التناسلية ، ومنهم من ماتوا موتاً بطيئاً من الجوع . وكانت جميع وسائل التعذيب السالفة الذكر تستخدم مع أولئك الفرسان في كثير من الحالات ، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جرى بهم إبعاد استجوابهم كانوا ضعافاً موشكين على الموت . وأظهر واحد منهم العظام التي سقطت من قدميه المحروقتين . واعترف الكثيرون منهم بجميع التهم التي وجهها لهم الملك ، وقال بعضهم إنهم قد تلقوا وعداً مختوماً بخاتم الملك أن يؤمنوا على حياتهم وترد لهم أملاكهم إذا أقرروا بارتكاب التهم التي توجهها لهم الحكومة ، ومات بعضهم في السجون ، وانتحر البعض الآخر ؛ وشد تسعة وخمسون على

قوائم خشبية وأحرقوا بالنيرال (١٣١٠) ، وظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يجهرون بأنهم بريئون . واعترف دوه مولاي Du Molay رئيس الطائفة الأكبر على نفسه نتيجة لهذا التعذيب ، فسبق إلى قائمة الإحراق ، فعاد إلى الإنكار ، واقترح محاكمه أن تعاد محاكمته ؛ ولكن فليب لم يرضه هذا التأخير ، وأمر بحرقه على الفور ، وشرف الملك بحضوره تنفيذ الحكم . وصادرت الدولة جميع ما كان لفرسان المعبد من أملاك في فرنسا ، واحتج البابا كلمنت الخامس على هذه الأعمال ، ولكن رجال الدين الفرنسيين أيدوا الملك في أعماله ، وامتنع البابا عن المقاومة وكان في واقع الأمر سجيناً في أفنيون ، وأعلن بإيعاز فليب إلغاء نظام فرسان المعبد (١٣١٢) . وصادر إدورد الثاني هو الآخر أملاك فرسان المعبد في إنجلترا ليسد بها حاجته إلى المال . وأعطى فليب وإدورد الكنيسة بعض هذه الأموال المصادرة ، ووهبا بعضها الآخر لأنصارهم وأحبائهم ، فأنشأوا بها ضياعاً واسعة ، وأعانوا بها الملوك على الأشراف الإقطاعيين القدامى .

وربما كان بعض الصليبيين قد تعلموا في الشرق أن يتغاضوا من جديد عن الشنوذ(\*)؛ وفي وسعنا أن نضم هذا ، والعودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة في الغرب ، إلى ما أسفرت عنه الحروب الصليبية من نتائج وأكبر الظن أن الأوربيين قد رجعوا إلى العادة الرومانية القديمة عادة حلق اللحية نتيجة لاتصالهم ببلاد الشرق الإسلامية(٦١) ، ودخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، وانتشرت القصص الشرقية في أوربا ، وتهياً لها مظهر جديد في اللغات القومية الناشئة . وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش المصنوع في بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التي أدت إلى تحسين الزجاج الملون الذي نشاهده

---

(\*) لقد وصف المؤلف في المجلدات السابقة انتشار الشنوذ الجنسي في بلاد أوربا ومنها بلاد اليونان والرومان ، وذكر في هذا الفصل نفسه تم الشنوذ الجنسي التي وجهت إلى الهيئات الصليبية المحاربة . ( المترجم )

في الكنائس القوطية (٦٢) . وكانت البوصلة ، والطباعة ، والبارود معروفة في بلاد الشرق قبل انتهاء الحروب الصليبية ، ولعلها انتقلت إلى أوربا في أعقاب تلك الحروب . ويلوح أن الأوربيين كانوا أشد جهلاً من أن يعنوا بالشعر ، والعلوم ، والفلسفة « العربية » ؛ ولهذا فإن تأثير الغرب بهذه المؤثرات الإسلامية جاء عن طريق أسبانيا وصقلية لا عن طريق اتصالهم بالمسلمين أثناء هذه الحروب . كذلك تأثر الغرب بالثقافة اليونانية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، ومن دلائل هذا التأثير أن موربيك Moerbeke كبير أساقفة كورنثة الفلمنكي أمد تومس أكويناس بتراجم لكتب أرسطو عن أصولها اليونانية مباشرة . وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن ما عرفه الصليبيون من أن أتباع الدين المسيحي قد يكونون مثلهم خلائق متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتمد عليهم ، أو يفوقونهم في هذه الصفات ، إن ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب بعض العقول على التفكير ، وكان سبباً في إضعاف العقائد الدينية المقررة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً ملؤه الإجلال بل والإعجاب في بعض الأحيان ، لو سمعه المحاربون في الحملة الصليبية الأولى لهرم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم (٦٣) .

وعظم سلطان الكنيسة الرومانية وعلت مكانتها إلى أبعد حد بسبب الحملة الصليبية الأولى ، ثم أخذت تضعف بالتدريج بسبب الحملات التي تلتها . وكان منظر الشعوب المختلفة ، والأشراف العظام ، والفرسان ذوى الكبرياء ، والأباطرة والملوك في بعض الأحيان ، متحدين جميعاً للدفاع عن قضية دينية بزعامة الكنيسة ، كان هذا المنظر سبباً في رفع مكانة البابوية وعلو شأنها . فقد كان مندوبو البابا يدخلون كل قطر وكل أبرشية ، يحثون الناس على التطوع للحروب الصليبية ويجمعون لها الأموال ، وكان سلطانهم يزاحم سلطان رجال الدين في تلك الأقطار والأبرشيات ويظفي عليه في بعض الأحيان ؛ وبفضلهم أصبح

المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا . وأضحى جمع المال على هذا النحو سنة متبعة ، وسرعان ما استخدمت الأموال المجموعة في أغراض أخرى غير الحملات الصليبية ؛ وأصبح من حق البابا أن يفرض الضرائب على رعايا الملوك ، وأن يحول إلى رومة مبالغ كبيرة من المال ، لولا هذا لذهبت إلى خزائن الملوك واستخدمت في الحاجات المحلية ؛ وأثار هذا بلا ريب غضب الملوك ومقاومتهم . وكان توزيع صكوك الغفران على من يقوم بالخدمة في فلسطين أربعين يوماً عملاً مشروعاً في العرف العسكري ، وكان منح هذه الصكوك الغفرانية نفسها لمن يتكفلون بنفقات محارب من الصليبيين يبدو كذلك من الأعمال التي يمكن التسامح فيها ، أما التوسع في منح تلك الصكوك ، إلى الذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، أو الذين يجاربون حروب البابا في أوروبا ضد فردريك ، ومانفرد Manfred وكنراد فقد كان مصدراً جديداً من مصادر غضب الملوك واستيائهم ، ومبعثاً لفكاهة الناقدین وسخریتهم . وحدث في عام ١٢٤١ أن أمر جريجوري التاسع مندوبه في بلاد المجر أن يعنى الذين أقسموا بالتطوع في الحرب الصليبية من أيانهم إذا أدوا إليه قدرأ من المال ، ثم استخدم ما جمعه من الأموال بهذه الطريقة في كفاحه المرير ضد فردريك الثاني<sup>(٦٤)</sup> . وقام الشعراء الجوالون أهل پروفسال ينتقدون الكنيسة لتحويلها تيار الحرب الصليبية من فلسطين إلى فرنسا ، وذلك بعرضها صكوك الغفران نفسها على من يتطوعون لمحاربة المارقين الألبجنسيين في فرنسا<sup>(٦٥)</sup> . ويقول ماثيو باريس Mathew Paris في التعليق على هذا العمل : « دهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار »<sup>(٦٦)</sup> . وكان كثيرون من ملاك الأراضي قد باعوا أرضهم للكنائس أو الأديرة أورهنوها لها ليحصلوا بذلك على ما يلزمهم من المال في الحروب الصليبية ، وأصبح للأديرة بفضل هذا ضياع واسعة . ولما أن انحطت مكانة الكنيسة بسبب إخفاق الحروب

الصليبية أضحت ثروتها هدفاً واضحاً لحسد الملوك ، وغضب الشعب وتأييب النقاد . ومن الناس من كان يعزو الكوارث التي أصابت لويس التاسع في عام ١٢٥٠ إلى الحرب التي شنها في الوقت نفسه إنوسنت الرابع على فردريك الثاني . وقام المتشككون الجريثون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله في أرضه . ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى ، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين ونصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم ، لأن محمداً في رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح (٦٧) .

وكان أثر الحروب الصليبية الذي يلي في أهميته لإضعاف العقيدة الدينية المسيحية هو بث روح النشاط في الحياة المدنية الأوروبية لمعرفة الأوربيين بأساليب المسلمين التجارية والصناعية . ذلك أن الحرب تسدى إلى الناس خيراً واحداً وهو أنها تعلمهم علم تقويم البلدان . فقد عرف التجار الإيطاليون الذين أثروا بفضل الحروب الصليبية كيف يرسمون خرائط للبحر المتوسط ، وتلقى المؤرخون الإخباريون الرهبان الذين رافقوا الفرسان آراء جديدة عن اتساع بلاد آسية واختلاف أصقاعها ونقلوا هذه الآراء إلى غيرهم من الناس ، وبهذا تحركت في القلوب الرغبة في الكشف والارتياح ، وظهرت كتب في وصف الأقاليم والبلدان ترشد الحجاج إلى البلاد المقدسة وإلى داخل البلاد المقدسة ؛ وأخذ الأطباء المسيحيون العلم عن الأطباء اليهود والمسلمين ، وتقدم علم الجراحة بفضل الحروب الصليبية .

وسارت التجارة وراء الصليب ، أو لعل التجارة هي التي قادت الصليب . لقد خسر الفرسان فلسطين ، ولكن الأساطيل التجارية الإيطالية لم تنتزع السيطرة على البحر المتوسط من أيدي المسلمين وحدهم بل انتزعتها كذلك من أيدي البيزنطيين . نعم إن مدائن البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملفي ،

ومرسيليا ، وبرشلونة كانت قبل الحروب الصليبية تنجر مع بلاد الشرق الإسلامية ، وتخرق مضيق البسفور والبحر الأسود ، ولكن الحروب الصليبية قد وسعت نطاق هذه التجارة إلى أبعد حد . وكان لاستيلاء البنادقة على القسطنطينية ، ونقلهم الحجاج والمحاربين إلى فلسطين ، وتوريدهم المؤن إلى المسيحيين وغير المسيحيين في بلاد الشرق ، واستيرادهم المحاصيل الشرقية إلى أوروبا - كان لهذا كاه أكبر الأثر في انتعاش التجارة والنقل البحرى انتعاشاً لم يكن له نظير منذ أيام مجد رومة الإمبراطورية ، وجاءت إلى أوروبا بكميات موفورة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والقرفة - وكانت كلها من مواد الترف النادرة في أوروبا في القرن الحادى عشر . وانتقلت من الشرق إلى الغرب بكميات كبيرة نباتات ومحاصيل وأشجار عرفتها أوروبا من قبل من بلاد الأندلس الإسلامية . ومن هذه الذرة ، والأرز ، والسّمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطيخ ، والخوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح . وسمى البصل الصغير المعروف باسم الشالوت والعسقلانى من اسم عسقلان الثغر الذى كان ينقل منه على ظهور السفن من الشرق إلى الغرب ، وظل المشمش يسمى « برقوق دمشق » زمناً طويلاً<sup>(٦٨)</sup> . وجاء من بلاد الإسلام الدمقس ، والموصلين ، والساتان ، والمحمل ، والأقمشة المزركشة ، والطنافس ، والأصباغ ، والمساحيق ، والعمطور ، والجواهر لتزدان بها بيوت أمراء الإقطاع وأهل الطبقات الوسطى وينحلى بها رجالمهم ونساؤهم<sup>(٦٩)</sup> . وحلت المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدنى محل المرايا المصنوعة من البرنز أو الصلب المصقول ، وأخذت أوروبا عن الشرق صناعة تكرير السكر والزجاج « البندقى » .

ونمت الصناعة الفلمنكية بوجود أسواق جديدة لها في بلاد الشرق ، وساعد

هذا النماء على قيام البلدان ونشأة الطبقة الوسطى ، وأدخلت من بلاد بيزنطية والإسلام فنون للأعمال المصرفية أحسن مما كان موجوداً فيها قبل ، فظهرت أشكال ووسائل جديدة للائتمان ، وازداد تداول النقود والآراء كما ازداد عدد الرجال . لقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعي زراعي ، نفخت فيه روح البربرية الألمانية الممزجة بالعاطفة الدينية ؛ واختتمت بقيام الصناعة ، واتساع نطاق التجارة ، في عهد ثورة اقتصادية مهدت السبيل لعصر النهضة وأمدته بالمال .